

لماذا تأخر المسلمون ؟ ولماذا تقدم غيرهم ؟

تأليف
الأمير شكيب أرسلان

تقديم
سامح عبد الرحمن رشواني

دار الكتاب المصرى
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

يستهدف هذا المشروع إعادة عرض كتابات النهضة وأعلامها في العالم الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (١٩ - ٢٠م)، ويتوجه إلى قطاع عريض من القراء والمثقفين من طلاب الجامعات والمعاهد والباحثين المهتمين بالفكر النهضوي في تراثنا؛ كي يتمكنوا من الاطلاع على أفكار هؤلاء الرواد وأعمالهم، والتي تتعرض للأسئلة والتحديات التي واجهت الأمة العربية والإسلامية، لدى احتكاكها بالعالم الغربي منذ بدايات القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وكيف حاول علماء الأمة ومفكروها الاجتهاد في الإجابة عن هذه الأسئلة والتحديات في زمانهم. وما زال كثير من تلك القضايا مطروحا علينا؛ مما يلقي على علماء الأمة ومفكريها الآن استيعاب تلك الأفكار والاسترشاد بها ومن ثم مسئولية الاجتهاد في هذه القضايا من منطلق متغيرات العصر.

دار الكتاب اللبناني
بيروت

لماذا تأخر المسلمون ؟
ولماذا تقدم غيرهم ؟

هذا الكتاب

صدر لأول مرة عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، في وقت عصيب عقب انهيار الخلافة العثمانية، ورزوح معظم شعوب العالم الإسلامي تحت نير الاستعمار، محاولاً أن يجيب عن السؤال المرير ومعضلة المعضلات: لماذا تأخر المسلمون؟

وفي إجابته عن ذلك السؤال المرير، يرجع شكيب أرسلان تأخُّر المسلمين إلى مجموعة من الآفات والرذائل الخُلقية والنفسية التي حاقت بهم؛ فقضت بتأخرهم وتخلفهم، كالكسل والجبن والبخل والخيانة وفقدان الحمية لنشر الدين وفساد الأخلاق واليأس والقنوط. ويضع المسلمين دوماً في مقابلة ومقارنة مع حال أجدادهم بالأمس، وحال الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين اليوم. ويلحق بهذه الرذائل بعض الأسباب الفكرية كالجهل والعلم الناقص والجمود والجحود.

ملخصًا جوابه في أن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم، وأن الواجب على المسلمين لينهضوا ويتقدموا ويعرجوا في مصاعد المجد، ويترقَّوا كما ترقَّى غيرهم من الأمم؛ أن يجاهدوا بالمال والنفس.

سلسلة

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور - هالة عبد الوهاب- حنان عبد الرازق

اللجنة العلمية

محمد عمارة — محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري — إبراهيم البيومي غانم

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

تصميم جرافيكي: صفاء حسين

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان — محمد القاسم

مراجعة لغوية: سماح رضوان سالم

الأعمال التحضيرية والمتابعة

بسمة عبد العزيز ـ هدى سيد ـ شيماء التركي



لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

تقديم

سامر عبد الرحمن رشواني

١٤٣٤ هـ / ٢٠١٢ م

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة - أثناء - النشر (فان)

أرسلان، شكيب، الأمير، 1869-1946م.
لماذا تأخر المسلمون؟ و لماذا تقدم غيرهم / تأليف الأمير شكيب أرسلان؛ تقديم سامر عبد الرحمن رشواني. — الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية، 2012.
ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-170-9
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. الحضارة الإسلامية. أ. رشواني، سامر عبد الرحمن. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي – 909.09767 | 2012619565

ISBN: 978-977-452-170-9 | رقم الإيداع: 9211/2012

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدّمتاه للمشروع.

دار الكتاب المصري القاهرة	دار الكتاب اللبناني بيروت
٣٣ شارع قصر النيل	شارع مدام كوري
تليفون: ٢٣٩٢٢١٦٨/ ٢٣٩٣٤٣٠١/ ٢٣٩٢٤٦١٤	تجاه فندق بريستول - بيروت
ص.ب: ١٥٦ العتبة	تليفون: ٧٣٥٧٣٢
الرمز البريدي ١١٥١١ - القاهرة - ج.م.ع،	ص.ب: ٨٣٣٠ - ١١، بيروت - لبنان
فاكسميلي ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)	فاكسميلي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
القاهرة Fax: (202) 23924657	بيروت Fax: (9611) 351433

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

First Edition
A.D. 2012 - H 1434

Website: www.daralkitabalmasri.com
E-mail: info@daralkitabalmasri.com

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديين»

المحتوى

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْنِ / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّيْن»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا – في إطار هذا المشروع – بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا – وغيرهم – لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية

والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا،.فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية
والمشرف العام على المشروع

تقديم

سامر عبد الرحمن رشواني

لم تزل مسألة التقدم الهمّ الصريح والمضمر الذي انشغلت به ودارت حوله مساهمات المفكرين العرب والمسلمين على مدى قرنين من الزمان. حين استيقظ العرب والمسلمون على وقع الحملات الأوربية التي استهدفت قضم أجزاء متوالية من العالم الإسلامي؛ فكانت تلك الوقائع ناقوسًا أفزع العرب، وأشعرهم بالهوة التي باتت تفصلهم عن العالم الغربي، عسكريًّا وسياسيًّا، علميًّا وتربويًّا، وربما أخلاقيًّا في نظر الكثيرين.

ومسألة التقدم قضية مركبة من عدد من الأسئلة المشكِلة المترابطة؛ فواقع تأخر الأمة وتخلفها عن ركب الأمم الأخرى يستدعي السؤال عن سبب ما آل إليه المسلمون من الانحطاط والتقهقر بعد عهود متطاولة من القوة والعظمة والتفوق الحضاري على أمم الأرض مجتمعة؛ وهذا سيدعو إلى البحث التاريخي عن العلل الكامنة وراء تلك الحالة الحضارية المجيدة والفريدة، كما يستدعي البحث عن أسباب ما صار إليه الغرب من تقدم وتطور. ولكن يبقى السؤال

الحارق هو: هل يمكن للمسلمين اللحاق بركب الأمم المتقدمة ومضارعتها، وما السبل الكفيلة بتحقيق ذلك؟

ولقد عبرت مسألة التقدم[1]، بقضاياها الإشكالية المتشابكة، بتطورات كثيرة في القرنين الماضيين، إن على مستوى الطرح النظري، أو على مستوى المعالجة الفلسفية. ومن أسئلتها ما أصبح جزءًا من التاريخ بحكم الواقع، كتلك الأسئلة المتصلة بمشروعية الأخذ عن الغرب والاستفادة من منجزاته العلمية والتقنية. في حين تأخر ظهور إشكالات أخرى تتصل بقضية التقدم إلى النصف الثاني من القرن العشرين، كتلك المتصلة بالرؤية الطوباوية للتقدم التي تحطمت على وقع حربين كونيتين، كشفتا حدود التدمير والهتك الإنساني الذي يمكن للتقدم أن يحققه، وهو أمر لم يكن جليًّا وواضحًا لمفكري القرن التاسع عشر. كما لا يخفى ما كان للظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية المتقلبة من أثر بعيد في تشكيل التصورات المختلفة المتصلة بالجواب عن مسائل التقدم وإشكالاته.

---

(١) لا بد من الإشارة هنا إلى أننا نستخدم مفهوم التقدم هنا بمعناه الواسع: الترقي من حال إلى حال خير منه؛ ذلك أن هذا المعنى قد استخدمت للدلالة عليه مصطلحات عديدة، يعكس كل منها طورًا من أطوار الفكر الإسلامي الحديث، ونقصد بذلك مصطلحات مثل: النهضة، الإصلاح، التجديد، التحديث، التنمية.. إلخ. للمزيد انظر: فادي إسماعيل، الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة، التقدم، والحداثة في الخطاب العربي المعاصر، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م.

وليس من قبيل الشطط القول بأن معظم التصنيفات الفكرية والإيديولوجية التي خضعت لها النخب الفكرية العربية طيلة قرنين، هي مرتبطة بنحو ما بهذه المسألة وتصوراتها المختلفة.

بل يمكن القول: إنه منذ منتصف القرن العشرين لم يعد تعريف الأمم والدول محددًا بهوياتها الثقافية أو خصائصها الجغرافية؛ بل بمقدار قربها أو بعدها من المعيار المطلق المقدس للتقدم، فغدا الخبر عن دول متقدمة، وأخرى متخلفة، وأخرى نامية. هكذا ترتبت الأمم وفق سلم قيمي، تحتل الدول المتقدمة أعلى درجاته، وتسمى بالعالم الأول، بينما يُطلق اسم العالم الثالث على الدول المتخلفة التي تأتي في ذيل هذا التقسيم(١).

كل هذا يجعلنا لا نعجب لهذا الحضور المتواتر والمفرط لسؤال التقدم في كتابات مفكري العرب والمسلمين منذ قرنين من الزمان. على أنه لا بد أن نشير إلى أن هذا التكرار قد بدأ يخلق حالة من الضيق والنفور، مرجعها إلى ما

(١) مما تجدر الإشارة إليه أن سؤال التقدم لم يكن سؤالاً عربيًّا أو إسلاميًّا فحسب، فهو سؤال إنساني بالدرجة الأولى، ويرتبط بشكل جوهري برؤية التاريخ وتفسيره وفلسفته. وقد شغل هذا السؤال الفلاسفة الغربيين لعقود طويلة لاسيما في القرن التاسع عشر. بل لا نعدو الصواب إن قلنا إن فلاسفة التاريخ الذين وضعوا نظريات مختلفة عن التقدم والتطور هم الذين كان لهم أكبر الأثر في حصول التحولات السياسية الهائلة التي خضع لها الغرب طيلة القرنين الماضيين. ولكن الفارق الجوهري بين سؤالنا وسؤال الغرب أنهم في الغرب عالجوا المسألة من جهة المتحصل على التقدم، أدوات ووسائل ومعارف، وكان همهم فلسفة هذا التقدم، بما يتيح لهم توجيهه في صالح مجتمعاتهم والمحافظة على تفوقها على الآخرين. انظر مثلاً: ج.ب. بيوري، فكرة التقدم، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٨٢م.

يسببه هذا السؤال من نَكْءٍ للجروح التي تعيشها الأمة في جميع وجوه حياتها، وإلى عجز المفكرين عن تقديم تصورات تحول دون المضي في المسيرة الفوضوية للتحديث والتطوير التي تُرسَم للأمة على أنها مبادئ التقدم وأسسُه.

والكتاب الذي بين أيدينا هو أحد الكتب المفتاحية في تاريخ مسألة التقدم. وأهميته – كما سيتبدى لنا – قد لا تكمن في عمق الرؤية النظرية لقضية التأخر والتقدم، بقدر ما ترتبط بعوامل أخرى، ليس أقلَّها أن مؤلفه هو الأمير شكيب أرسلان، الرجلُ السياسي المحنك، والأديبُ الماتح أو المستقي من بحر البلاغة ومَعين الفصاحة، المؤرخُ لأمجاد العرب وانتصاراتهم وغزواتهم على وجه الخصوص.

ولا يسع المؤرخ لمسألة التقدم في الفكر العربي الحديث إلا أن يأخذ بعين العناية والاهتمام هذا الكتاب، الذي ظهر في مرحلة مهمة من تاريخ هذه المسألة وتطوراتها، والذي كان له بعيد الأثر في الواقع والفكر لعقود عديدة.

وتقديمنا هذا ليس إلا محاولة لإلقاء الضوء على هذا المؤلَّف الشهير، الذي غدا عنوانه سائرًا على كل لسان؛ أولاً: بالتعريف بمؤلفه وسيرته الفكرية والنضالية الواسعة، التي تكشف لنا عن الحيثيات التاريخية والشخصية التي كوَّنت فكره وأثَّرت في رؤيته لمسألة التقدم، وثانيًا: بالإطلالة الخاطفة على التضاريس الفكرية المتنوعة التي شكلتها مسألة التقدم حتى الربع الأول من القرن العشرين، زمنِ

تأليف هذا الكتاب، لما تلقيه من ضوء على المؤثرات والمنابع التي كوّنت فكر أرسلان. وثالثًا: بتحليل القضايا الجوهرية والأفكار المحورية التي عالجها كتاب أرسلان. وذلك قبل الحديث عن أثره في لاحقيه، وصدى سؤاله الذي لا يزال يتردد في آفاق العالم الإسلامي، مثيرًا من الآلام قدرَ ما يبعث من الآمال.

التعريف بالمؤلف[1]

أ. نشأته

ولد أمير البيان شكيب أرسلان في (غرة رمضان ١٢٨٦هـ/ ٥ ديسمبر ١٨٦٩م)، في قصبة الشويفات من جبل لبنان. وهو ينتسب إلى أرسلان بن مالك الذي استوطن مع عشيرته مناطق معينة من جبل لبنان بناء على أمر من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، لصد هجمات الروم على أطراف الدولة العباسية. ينحدر الأرسلانيون من سلالة الملك النعمان بن المنذر بن ماء السماء

---

(١) اعتمدنا في ترجمة شكيب أرسلان على عدد من أهم الكتب التي تناولته بالدرس، وقد آثرنا أن نجمل ذكرها هنا دون الإحالة الجزئية إلى كل منها، وذلك تفاديًا للإطالة والإملال، وتحقيقًا لمقصود هذا التعريف الموجز. أما الكتب التي اعتمدناها في إخراج هذه الترجمة فهي:

شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، الشوف (لبنان)، الدار التقدمية، ٢٠٠٨م.

محمد علي الطاهر، ذكرى الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٧م.

أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، سلسلة أعلام العرب رقم (٢) القاهرة، مطبعة مصر، ط١، ١٩٦٣م.

ظاهر محمد صكر الحسناوي، شكيب أرسلان ودوره السياسي في حركة النهضة العربية الحديثة ١٨٦٩-١٩٤٦، بيروت، منشورات رياض الريس، ٢٠٠٢م.

اللخمي. وقد ظل شكيب فخورًا بنسبه العربي الذي أثر تأثيرًا كبيرًا في تكوينه وبناء شخصيته طوال حياته، محاولاً إبعاده عن أي اشتباه مما قد يلقيه لقب أرسلان من ظلال التركية عليه.

وتفاخر أسرة أرسلان بأمجاد لها في التاريخ، فجدها الأمير عون قد اشترك مع خالد بن الوليد في نجدته لأبي عبيدة في فتوح الشام، واستشهد عون في معركة أجنادين. والأمير أرسلان بن مالك المنذري حارب الروم في لبنان بأمر أبي جعفر المنصور، وفي الحروب الصليبية أبلى آل أرسلان بلاءً حسنًا، كما عاونوا دولة الخلافة في فتوحاتها.

ويحدثنا شكيب بأنه من سلالة الأشراف وآل البيت، لأن أجداده قد تناسلوا من الفاطميات. وأبوه الأمير حمود بن حسن كانت له مشاركة في الأدب والشعر، كما شارك في النشاط السياسي معرضًا نفسه لعقوبة الإعدام في الأحداث التي جرت في جبل لبنان بين الدروز والمارونيين عام (١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م). ولكنه نجا منها بفضل شهادة عدد من المسلمين والمسيحيين الذي شهدوا ببراءته من تلك الأحداث، وقد أهّله موقفه المعتدل من الصراع في منطقته أن يحكم ناحية الشويفات ثلاث مرات حتى وفاته عام (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م).

وأُمّ شكيب سيدة شركسية كان لها تأثير كبير في حياة شكيب ونفسيته، وعن فضائلها يقول: «عشت في مأمن من الرذائل والدنايا ... وأن لا أخضع إلا أمام الحق والحقيقة».

وشكيب منسوب من الناحية السياسية الطائفية الرسمية إلى طائفة الدروز. وعلى الرغم من ارتباط شكيب الاجتماعي بالدروز فإنه اتجه اتجاهًا إسلاميًّا محضًا بعيدًا عن الغلو، وكان يتعبد على مذهب أهل السنة، فهو يصوم ويصلي ويزكي ويحج كما يفعل جمهور المسلمين.

ومع أنه شخَّص ابتعاد الدروز عن الإسلام، إلا أنه رفض إخراجهم منه، عادًّا إياهم فرقة إسلامية مغالية، معتقدًا أن القضاء على الجهل والتخلف كفيل بتصحيح ذلك الغلو والعودة إلى منبعهم الأول «الإسلام»[١].

إن انتماءه الدرزي قد وضعه أمامه كثير من المصاعب والاتهامات، التي عانى منها طوال حياته من لدن العناصر المناوئة له سياسيًّا، والذين كانوا يرددون ادعاءات المستشرقين بفصل الدروز عن العرب والإسلام، فتصدى لتلك الادعاءات، مؤكدًا أن الدروز أو «بني معروف» عرب أقحاح. وقد عرضه إيمانه بالعروبة والإسلام إلى متاعب كثيرة في حياته، فبعض الدروز لا يعدونه درزيًّا كاملاً، وبعض المسلمين لا يرونه مسلمًا خالصًا؛ فضاع جانب من حقه بين هؤلاء وهؤلاء.

---

(١) يذكر الأستاذ محمد المبارك أن شكيب أرسلان قد حاول أن يعيد الدروز إلى الإسلام السني، ولكن محاولته باءت بالفشل، انظر: كتابه «رؤية إسلامية مبكرة لحل المشكل العرقي الطائفي الحزبي في سوريا»، نشره باسل الرفاعي عن دار عمار، الأردن، عام ٢٠٠٣م.

ب. التنشئة الفكرية

اهتم والده بتعليمه القراءة والكتابة، فحفظ جانبًا من القرآن الكريم وهو صغير، ثم أتم تعليمه في المدرسة الأمريكية بالقرية. وفي سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) دخل مدرسة الحكمة في بيروت، وهي مدرسة مارونية مشهورة بإجادة تعليم اللغة العربية وآدابها، وتتلمذ فيها على عبد الله البستاني أحد أعلام النهضة العربية الحديثة وصاحب معجم البستان.

وفي أجواء الأسرة والمدرسة انطلق شكيب ينظم الشعر، وتفتقت قريحته الشعرية بقصائد جميلة وهو ابن الرابعة عشرة. وبعدها بسنتين كتب أول مقالة له لمجلة الصفاء البيروتية. وفي المدرسة كان أول لقاء له مع الإمام محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م)، حيث توقع له الإمام مستقبلاً حافلاً، ومنذ ذلك اليوم أخذت علاقة شكيب تتوثق بالإمام فيسمع منه ويتأثر به. وقد توثقت الصلة بين الأستاذ الإمام وأسرة شكيب أيضًا، إذ كان يزور والدَ شكيب في الشويفات ويتراسل معه.

وفي سنة (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م)، دخل شكيب مع أخيه نسيب المدرسة السلطانية ببيروت، وهي مدرسة أسسها المسلمون لتهذيب شبانهم، وفيها درس على الأستاذ الإمام الفقه والتوحيد، وقرأ عليه مجلة «الأحكام العدلية»، بجوار علوم المدرسة الأخرى. ورأى فيه «عالمًا لا كالعلماء الذين نعهدهم».

أصدر شكيب مجموعته الشعرية الأولى باسم «الباكورة» عام (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م)، وأهداها إلى الشيخ محمد عبده، وضمَّنها مدائح عديدة له، ومنها يستشف عمق التأثير الذي تركه محمد عبده فيه، ومنها قوله:

سلام على وجه الإمام محمد   محمد به ماء الحيا يترقرق
إذا قام من فوق المنابر فاصلاً   فأي ضلال ليس يُمحى ويُمحق

وفي سنة (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م) سافر إلى دمشق وحضر مجلس الشيخ محمد المنيني مفتي الشام. وفي سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) زار شكيب مصر لأول مرة فقضى في الإسكندرية قرابة شهر، ثم نزل القاهرة في ضيافة الشيخ محمد عبده، وكان شكيب قد أرسل إلى الشيخ يستشيره في قدومه إلى مصر، فكتب إليه الشيخ يَحضُّه على ذلك. انضم شكيب إلى حلقة الشيخ التي تضم نخبة من أبرز سياسيِّي مصر ومثقفيها وأدبائها، فتوثقت علاقته بهم، مثلما توثقت بصحف القاهرة كالأهرام والمؤيد والمقتطف، حيث بدأت مقالاته تجد طريقها للنشر على صفحاتها.

وفي أواخر عام (١٨٩٠م/ ١٣٠٨هـ) غادر شكيب مصر إلى الأستانة ، للحصول على وظيفة مناسبة بناء على نصيحة الشيخ محمد عبده، بعد أن فشل في الحصول عليها في مصر. وهناك التقى بالثائر جمال الدين الأفغاني، وسمع منه وتأثر به. ويروي شكيب أن الأفغاني قال له: «سقيًا لأرض أنبتتك». وفي

تضاعيف أو حواشي تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي كثير من القول في الأفغاني.

وفي (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) سافر إلى فرنسا حيث التقى بأحمد شوقي، وانعقدت بينهما «الألفة بغير كلفة» وكانت بداية صلة مديدة بينهما. عاد شكيب إلى لبنان بعد أن عالج نفسه من مرض ألمّ به. وقد بلورت هذه الرحلة شخصية شكيب، ومنحتها أبعادًا جديدة في الفكر والثقافة، مثلما منحتها أبعادًا أخرى في العلاقات السياسية والاجتماعية مع أقطاب عصره من رجال الفكر والأدب والسياسة.

بعد عودته إلى لبنان بذل شكيب جهودًا كبيرة لتعزيز النفوذ الأرسلاني في الجبل، ونجح في انتزاع منصب قائم مقامية الشوف من الحزب الجنبلاطي وإسناده إلى عمه الأمير مصطفى أرسلان. وعدا ذلك فإن نشاطه السياسي يكاد يكون معدومًا خارج نطاق الجبل في الحقبة الممتدة من (١٣١٠- ١٣٢٠هـ/ ١٨٩٢-١٩٠٢م)، إلا أنها تعد فترة غنية في ميدان الفكر والثقافة، وضمن هذه الحقبة يمكن حصر نشاطه في ناحيتين؛ الأولى: دراسة التراث العربي، والثانية: توسيع نطاق علاقاته مع أعلام عصره.

فقد انكب على دراسة التراث العربي فقرأ رسائل أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وحفظ كثيرًا منها، وقرأ تاريخ ابن خلدون ومقدمته

فأعجب بأسلوبه في كتابة التاريخ وتحليل الأحداث وتقرير طبائع العمران، ويظهر أسلوب ابن خلدون واضحًا لدى شكيب من خلال كتابه «الارتسامات اللطاف». كما عكف على تحقيق مخطوطة «الدرة اليتيمة» لابن المقفع وطبعها عام (١٣١١هـ/ ١٨٩٣م)، كما استنسخ مخطوطة رسائل أبي إسحاق الصابئ ونشرها عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م). وترجم بعض الكتب عن الفرنسية مثل قصة «آخر بني سراج» للفرنسي دوشاتوبريان، ونشرها عام (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) في الإسكندرية. وخلال هذه الفترة أيضًا تعرف بمحمود سامي البارودي (١٢٥٥-١٣٢٢هـ/ ١٨٣٨-١٩٠٤م) وراسله عندما كان بمنفاه في جزيرة سيلان. وكذلك بالشيخ طاهر الجزائري وهو أحد أقطاب النهضة في سوريا. ومحمد رشيد رضا الذي التقى به في بيروت عام (١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م)، وانعقدت بينهما رابطة متينة امتدت بقية حياته.

ج. النشاط السياسي

بدأ شكيب أرسلان نشاطه السياسي منذ أوائل القرن العشرين، فتولى منصب قائم مقامية الشوف عام (١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م)، ولكن سرعان ما أقيل منه، ومنذ ذلك الحين دخل في صراع عنيف مع المتصرِّفين في جبل لبنان. وازداد الصراع ضراوة بعد الانقلاب الدستوري عام (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، حين تزعم شكيب الحركة الدستورية المطالبة بإجراء الانتخابات في جبل لبنان وإرسال

مبعوثين عنه إلى مجلس «المبعوثان العثماني» أو البرلمان العثماني، فأعيد إلى منصبه، حتى استقالته منه في (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م).

وفي (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، اعتدت إيطاليا على طرابلس الغرب (ليبيا) فغضب شكيب من هذا العدوان، وكتب إلى مختلف الجهات يحرض على نجدة العرب في طرابلس، ويحث على مدهم بالأموال والسلاح. قاد بعدها شكيب قافلة من الإمدادات المصرية إلى المجاهدين الليبيين، وهناك عرف أنور باشا وقادة الحركة السنوسية. ولما أوشكت الدولة العثمانية على عقد الصلح مع إيطاليا سافر إلى الأستانة في (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) ليسعى لدى الحكومة العثمانية لإبقاء جسور الإعانة ممدودة إلى المجاهدين في ليبيا. وشهد في الأستانة هزيمة الجيش العثماني أمام القوات البلقانية. بعد تلك الهزيمة بدأ يفتش عن الوسائل الفعالة لإعادة بناء الدولة العثمانية على أسس متينة لتتمكن من مواجهة تلك الأخطار؛ فقام مع مجموعة من العرب والأتراك بتأسيس «الجمعية الخيرية الإسلامية» التي كانت تهدف إلى تلافي الانشقاقات القومية والحزبية داخل الدولة.. فعُقد مؤتمرها التأسيسي في (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م) وانتُخب يوسف شتوان، أحد النواب الليبيين في مجلس «المبعوثان»، مديرًا لها، إلا أن الجمعية لم تحقق شيئًا يذكر بسبب انشغال أعضائها بالحرب البلقانية، ثم بالحرب العالمية الأولى.

في (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م)، انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس، فعارضه شكيب بشدة إيمانًا منه بضرورة الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية وكيانها، وقد

استدعته الدولة العثمانية مع عدد من السوريين للاشتراك في المداولات الجارية مع ممثلي المؤتمر العربي، بشأن الإصلاحات المزمع تنفيذها في الولايات العربية. وطرح عبد العزيز جاويش فكرة تأسيس مدرسة «دار الفنون» بالمدينة المنورة، فانتدبته الحكومة العثمانية مع شكيب أرسلان وعبد القادر المغربي إلى هناك للإشراف على تأسيسها. استُدعي بعدها إلى الشام للاشتراك في الانتخابات التي جرت أواخر (١٩١٣م/ ١٣٣٢هـ)، حيث كانت الحكومة العثمانية قد رشحته عن منطقة حوران، وقد حصل على الأغلبية في هذه الانتخابات، وسافر إلى الأستانة للمشاركة في افتتاح مجلس «المبعوثان».

وقد انصبت جهوده في مجلس «المبعوثان» على عدة نواح أبرزها: العمل على ترصين الوحدة العثمانية وتطويرها، وبهذا الصدد أيد تطوير التعليم وبناء المدارس وتخصيص الأموال الكافية لهذا الغرض. كما أيد زيادة نسبة المنح الدراسية إلى الولايات العثمانية في مدرسة «دار الخلافة»، من مائة طالب سنويًا إلى ثلاثمائة. كما دعا إلى إقامة شبكة واسعة من خطوط الحديد لربط أجزاء الدولة العثمانية. كما اهتم بقضايا البريد والبرق وطالب بإصلاح الأجهزة الإدارية وتسهيل الخدمات الطبية والقضاء على الأمراض المتوطنة، وبإصلاح النظام الضريبي للدولة.

وانتهت الحرب العالمية الأولى ووقع ما حذر منه شكيب، فإذا الحلفاء يخدعون العرب ويخونون مواثيقهم مع الثورة العربية الأولى، ويتقاسمون المشرق

العربي. ولكن شكيب لم يستسلم للأمر الواقع، بل عدَّ الوحدة العربية البديلَ القوي الذي لا بد منه للحفاظ على كيان الأمة، وفي ذلك يقول: «إن العثمانية قد ذهبت وذهبت وحدتها وانطوى بساطها، وأما العربية فلن تذهب، ووحدتها ما تزال نشيدة آمال العرب»[١].

وفي عام (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) تألف وفد سوري فلسطيني للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم أمام جمعية عصبة الأمم بجنيف، واختير شكيب سكرتيرًا عامًّا له. ومنذ ذلك الحين أصبحت القضية السورية الفلسطينية شغله الشاغل في أوربا؛ فسافر من أجلها إلى لندن في (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م)، وفي العام نفسه حاول شكيب أن يتفاهم مع المسؤولين في إيطاليا لمعاونة العرب ضد المحتلين لبلادهم،

(١) يذهب كثير من الباحثين العرب إلى أن أرسلان قد تحول خلال هذه الفترة (بعد انهيار الخلافة العثمانية) لتأييد القومية العربية، وأن هدفه أصبح تحقيق الاستقلال العربي، ولكن كليفلاند يرى أن هناك أدلة وافرة مستفيضة عن التزام أرسلان العميق بالكفاح الشامل من أجل كل المسلمين ضد الحكم الأجنبي.. فأرسلان لم يتخذ العروبة طريقًا كاملاً ووحيدًا، بل أعاد صياغة إيمانه بالقومية الإسلامية التي تتضمن ولا تتعالى على الطريق العربي. ومجلته «الأمة العربية» ـ ذات العنوان المضلل ـ تحوي العشرات من المقالات التي لا تعني العرب من قريب أو بعيد. كمثل اهتمامه المتواصل بمسلمي البلقان، وجهده المضني في لفت اهتمام المسلمين والعرب إلى مأساتهم الفادحة، وحربه ضد الظهير البربري.

إن نزوع أرسلان وإيمانه بالهوية الإسلامية لدليل بارز على سيرورة متسقة في قيمه وآرائه، وأنه لم يكن ـ كما يصفه أعداؤه ـ انتهازيًّا يميل مع الرياح حيث تميل. فهو لم يتحول من الإسلامية إلى العروبية، كما أن صلاته السياسية بالملوك والأمراء لم تكن إلا لتحقيق رسالته المقدسة في تحرير الشعوب العربية والمسلمة من قيد الاستعمار، فقد علم أرسلان أن القيام بمثل هذه المهمة لا يتم بغير دعم رجال أقوياء، ولكن كلُّ من خَيِّل إليهم أنهم ضامنون ولاءَه عبر رعايتهم ومِنَحهم، قد شعروا بخيبة أمل في نهاية الأمر، إذ تبين لهم أن أرسلان رجل لا يُشترى ولاؤه. لمزيد تفصيل في هذه المسألة انظر:

Cleveland, William L. *Islam against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism*. Austin: University of Texas Press (Modern Middle East Series, No.10), 1985.

وقد اشترك في هذا التفاهم صديقه الشيخ محمد رشيد رضا. كما شارك في مؤتمر الشعوب الإسلامية المضطهدة بروما، وقدم تقارير مهمة إلى عصبة الأمم عن القضية السورية في (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م).

هكذا أصبح شكيب عدوَّ الاستعمار اللدود، فحظرت بريطانيا وفرنسا دخوله إلى كافة الأراضي الخاضعة لهما؛ فاضطر للإقامة في بلدة مرسين بتركيا فترة، ثم غادرها إلى أوربا في (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) لمتابعة القضية السورية الفلسطينية في عصبة الأمم. فأسس في برلين جمعية سمَّاها «هيئة الشعائر الإسلامية» لتكون بعيدة عن الشؤون السياسية، وتهتم بأمور المسلمين في البلاد الألمانية، وقد تشكلت هذه الجمعية من أعضاء يمثلون جميع الشعوب الإسلامية، واشترك فيها موظفو السفارات الإسلامية كأعضاء عاملين. ثم توجه إلى جنيف (التي أصبحت منفاه الاختياري حتى آخر حياته) حيث عاد لمتابعة نشاطه السياسي فترأس الوفد السوري بجنيف، لعرض القضية السورية على لجنة الانتدابات في (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م). ولم يقتصر نشاطه على أوربا؛ بل توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للمشاركة في مؤتمر حزب الاستقلال السوري هناك في (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م)، كما توجه إلى موسكو في العام نفسه، وطالب بتحسين العلاقات بين العرب والروس.

في (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م) حج شكيب أرسلان إلى بيت الله الحرام، وفي جدة استقبله الملك عبد العزيز بن سعود واصطحبه إلى مكة، وعرض عليه الإقامة

في الحجاز، كما عرض عليه عددًا من الوظائف، إلا أنه اعتذر عن عدم تلبية تلك العروض، متذرعًا بمتابعة القضية السورية الفلسطينية في أوربا. وعن رحلته هذه وضع كتابه «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف».

وفي عام (١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م) قام شكيب برحلة إلى إسبانيا والمغرب، ووثق صلاته خلالها بالحركة الوطنية المغربية، وعاد فكتب كتابه «تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط». كما بدأ يفكر في إصدار كتابه الجليل «الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية». وفي هذه الفترة أيضًا كتب رسالته «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم». كما بدأ بإصدار مجلة «الأمة العربية» (La Nation Arabe) بالفرنسية في جنيف؛ ليدافع فيها عن قضايا العرب والمسلمين.

وفي أثناء وجوده في إسبانيا توجه للقاء الملك فيصل في جنوب فرنسا، وناقش معه فكرة تأسيس الحلف العربي الذي ما فتئ ينادي به خلال العشرينيات، والذي اقترح أن يضم كلاًّ من العراق والسعودية واليمن. ثم التقى به ثانية في (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م) واقترح عليه إقامة دولة ثنائية عراقية سورية تحت تاج واحد، فاقتنع الملك بالفكرة، ولكن السياسيين الفرنسيين عارضوها؛ خوفًا على مصالحهم الاستعمارية.

دعي شكيب لحضور مؤتمر المستشرقين الذي عقد في ليدن بهولندا عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م) واستمر عشرة أيام بحضور أكثر من ألف مستشرق من كافة أنحاء العالم، وترأسه سنوك هورغرونيه. ودار بينه وبين شكيب حديث طويل بشأن الاستعمار الهولندي في إندونيسيا وما يقوم به الهولنديون من أعمال تعسفية ضد المسلمين، مثل إجبارهم على التنصر ومنعهم من الحج، وألقى محاضرة بعنوان «علاقة التاريخ باللهجات العربية».

واستجابة للدعوات الواردة من مسلمي البلقان له، قام برحلة إلى أوربا الشرقية في (ربيع الآخر ١٣٥١هـ/ أغسطس ١٩٣٢م) فعرَّج على فيينا وبودابست وبلغراد واطلع على أحوال المسلمين فيها، ثم توجه إلى البوسنة، فكانت تستقبله الألوف على مداخل تلك المدن، ثم عاد مرة أخرى في شتاء (١٣٥٢-١٣٥٣هـ/ ١٩٣٣-١٩٣٤م) إلى تلك البلاد وكرَّس جهوده لخدمة القضية الفلسطينية والتحضير لعقد المؤتمر الإسلامي الأوربي. وابتدأ ببرلين حيث تباحث مع المسؤولين بالخارجية الألمانية حول ضرورة وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ثم توجه إلى يوغوسلافيا ثم بودابست، وواصل رحلته إلى إيطاليا حيث اجتمع مع موسوليني في (ذي القعدة ١٣٥٢هـ/ ١٥ فبراير ١٩٣٤م) وأجرى معه مفاوضات بشأن القضية الليبية، والقضية السورية الفلسطينية، ويبدو أن موسوليني قد

استجاب لمعظم المطالب التي قدمها شكيب بشأن تغيير السياسة التعسفية التي تتبعها إيطاليا في ليبيا[1].

ولم يكن نشاطه مقتصرًا على أوربا، فحينما اندلعت الحرب بين اليمن والسعودية في (ذي الحجة ١٣٥٢هـ/ مارس ١٩٣٤)، قرر المكتب الدائم للمؤتمر الإسلامي بالقدس تشكيل وفد للمصالحة برئاسة أمين الحسيني وعضوية كل من شكيب أرسلان وهاشم الأتاسي ومحمد علي علوبة وبشير السعداوي، وبعد وصوله إلى جدة أطلعته الحكومة السعودية على معظم الوثائق المتعلقة بموضوع الخلاف، ونتيجة لجهود الوفد، تم الاتفاق على عقد الهدنة بين الطرفين أعقبها توقيع معاهدة الصلح والسلام بحضور أعضاء الوفد في الحجاز.

ترأس شكيب «المؤتمر الإسلامي الأوربي» الذي انعقد في (جمادى الآخرة ١٣٥٣هـ/ سبتمبر ١٩٣٥م) بجنيف، واشترك فيه سبعون شخصًا وفدوا من الشرق والغرب، وعُدَّ فرعًا من المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بالقدس عام

(١) لم يقصر شكيب أرسلان نشاطه على دعم قضايا المشرق العربي (سوريا وفلسطين..)، بل كان له دور فعال في قضايا المغرب العربي. إذ ربطته علاقات متينة برجالات الثورة في المغرب، فساندهم وقدم لهم كل ما يستطيع من دعم مادي وسياسي ومعنوي. ففي المغرب ساند عبد الكريم الخطابي في ثورته في الريف ضد الإسبان، وكتب بخصوصها إلى عصبة الأمم في (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م) مطالبًا تدخلها، وفي الجزائر كان على صلة وثيقة مع عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي والزعيم السياسي مصالي الحاج الذي استطاع أرسلان إقناعه بالتخلي عن أفكاره الشيوعية. وقد انضم شكيب إلى «هيئة استقلال تونس والجزائر» التي أسسها التونسيان صالح شريف وإسماعيل الصفائحي في سويسرا عام (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م)، وكانت تربطه علاقة وثيقة بعبد الرحمن الثعالبي مؤسس حزب الدستور التونسي والحبيب بورقيبة. أما جهاده ضد الإيطاليين في ليبيا فمشهور، وصلته بعمر المختار تدل عليها الرسائل المتبادلة بينهما.

(١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، ولكنه اقتصر على دراسة مشكلات المسلمين في أوربا فقط وما يتعرضون له من اضطهاد من بعض الدول الأوربية، وتوثيق الروابط الدينية والثقافية فيما بينهم.

وبعد نجاح الكتلة الوطنية في سوريا بعقد معاهدة ١٩٣٦ مع فرنسا، سمح له بالعودة إلى وطنه فوصل إلى بيروت برفقة زميله إحسان الجابري، حيث مارس خلال وجوده بسوريا نشاطًا سياسيًّا وثقافيًّا مهمًّا، فقد ألقى محاضرة في النادي العربي عن الوحدة العربية في عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م) اقترح فيها إقامة دولتين عربيتين كبيرتين إحداهما في المشرق والأخرى في المغرب؛ وذلك مراعاة للظروف الخاصة التي تحيط بالوطن العربي آنذاك. فتعرض شكيب بسبب هذا الرأي لانتقادات عديدة. ثم لما تدهورت العلاقات السورية الفرنسية بعد انهيار حكم الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم، ورفضت حكومة المحافظين الجديدة تصديق معاهدة ١٩٣٦ اضطر شكيب إلى مغادرة وطنه عائدًا إلى جنيف أواخر (١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ).

وفي (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) أصدرت الحكومة السورية مرسومًا بتعيين شكيب رئيسًا للمجمع العلمي العربي، واستدعي إلى سوريا ليتولى منصبه، ولكنه في النهاية رفض العودة إلى دمشق إلا إذا استقلت سوريا كسائر الدول. وفي جنيف ألزم الحلفاء الحكومة السويسرية بمنعه من الخروج منها، ولم تقتصر تلك المضايقات على شكيب نفسه فحسب، بل شملت حتى الذين يلتقون به.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وإعلان استقلال سوريا ولبنان، عاد شكيب إلى وطنه في (٥ ذي الحجة ١٣٦٥هـ/ ٣٠ أكتوبر ١٩٤٦م)، ولم يطل به المقام طويلاً؛ إذ اشتد عليه المرض وأصيب بنزف في الدماغ انتهى بوفاته ليلة الإثنين (١٥ المحرم ١٣٦٦هـ/ ٩ ديسمبر ١٩٤٦م)، وشيَّعه موكب رسمي ضم رئيس الجمهورية بشارة الخوري وعدد من الوزراء السوريين، وأقيمت لشكيب حفلات تأبينية كثيرة في معظم الأقطار العربية والإسلامية، اشترك فيها ممثلون من أنحاء العالم كالهند والفلبين وإندونيسيا وأفغانستان ودول البلقان وأمريكا الشمالية والجنوبية. وكتبت عنه أكثر من مائة جريدة ومجلة في هذه البلدان. وكل ذلك يشير إلى المكانة المرموقة التي كان يحتلها في العالم آنذاك.

د. إنتاجه الفكري والسياسي

لقد أمضى شكيب أرسلان أكثر من ستين عامًا من حياته في القراءة والكتابة والخطابة والتأليف والمراسلة والنظم. فنشر في عشرات المجلات والصحف، وكتب الآلاف من الرسائل مع أعلام عصره وأعيانهم، وألقى مئات الخطب والبيانات، وخلف وراءه عشرات الكتب والرسائل ما بين مخطوط ومطبوع.

حتى لقد جاء في رسالة بعث بها إلى صديقه السيد هاشم الأتاسي عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) أنه أحصى ما كتبه في ذلك العام، فكان ١٧٨١ رسالة

خاصة، و١٧٦ مقالة في الجرائد، و١١٠٠ صفحة كتب طبعت. ثم قال: وهذا (محصول قلمي في كل سنة)[1].

ومنذ وقت مبكر لاحظ صديقه رشيد رضا أنه يرهق نفسه في الكتابة والقراءة، وكان يطلب منه دومًا التخفيف على نفسه، حتى لقد شعر بثقل هذه الرسالة (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟) التي طلب منه كتابتها والجواب عنها [2].

وعرَّفه «خليل مطران» بإمام المترسلين، فقال عنه: «حضري المعنى، بدوي اللفظ، يحب الجزالة حتى يستسهل الوعورة، فإذا عرضت له رِقَّة، وألان لها لفظه، فتلك زهرات ندية مليَّة شديدة الريا ساطعة البهاء كزهرات الجبل»، وعقب عليه الزركلي بأن ذلك كان: «قبل الأعوام الأخيرة من حياته، ثم انطلق فتحول إلى الأسلوب الحضري في لفظه ومعناه»[3].

وكان أرسلان يجيد الفرنسية والتركية، وله إلمام بالإنكليزية والألمانية.

ترك الأمير شكيب إنتاجًا غزيرًا ومهمًّا، وتجاوزت مطبوعاته ثلاثين كتابًا. هذا بالإضافة إلى مئات البحوث والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات. وأما

---

(١) خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ٣/ ١٧٤.

(٢) شكيب أرسلان، «لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟»، الطبعة الحالية، ص٤.

(٣) خير الدين الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ٣/ ٢٥١.

مدوناته السياسية ومذكراته إلى عصبة الأمم باللغة الفرنسية فتقدر بنحو ٢٠ ألف صفحة، وقد أهداها شكيب إلى وزارة الخارجية السورية قبل وفاته[١].

أما أوراقه الشخصية ومراسلاته[٢] فقد بقيت طي الكتمان، وذلك لعدم سماح عائلة أرسلان للباحثين العرب أو الأجانب بالاطلاع عليها. وقد أخبرت مي أرسلان ابنة شكيب كليفلاند، أحد المؤرخين لشكيب، في سنة (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) أن أوراق والدها، التي تقدر بنحو ٣٠ ألف رسالة، قد أرسلت إلى المغرب حيث تقبع في أسر الحكومة المغربية هناك بعيدًا عن متناول الباحثين[٣].

وقد ألحقنا بهذه التقدمة ثبتًا بكتبه ورسائله المطبوع منها والمخطوط، وتشمل جميع ما ألَّفه وحقَّقه وعلَّق عليه وترجمه. وأضفنا إلى ذلك الكتبَ أو الرسائل التي ذكر شكيب أنه مزمع تأليفها، ولا يعلم إن كان قد أتمها. وذيَّلنا هذا الثبت بما علمنا من كتبٍ اختصت الأمير شكيب أرسلان بالبحث والدرس.

---

(١) محمد علي الطاهر، ذكرى الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٧م، ص ٥٣.

(٢) من المراسلات التي تم الكشف عنها، مراسلاته مع الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية. وجدها الأمريكيون في المجر، ثم تمكنت وزارة الخارجية الإسرائيلية من تصويرها، ثم أودعتها في أرشيف الحكومة الإسرائيلية في سنة ١٩٨٤م. وتحوي ٣٧٠ صفحة من مراسلات شكيب لأمين. انظر:
M. Kramer. Book Review, Middle Eastern Studies, Vol. 23, No.4 (October 1987), pp.529-33

(٣) M. Kramer. Book Review, Middle Eastern Studies, Vol. 23, No.4 (October 1987), pp.529-33.

التعريف بالرسالة

أولاً: قصة الرسالة

في شهر (ربيع الآخر ١٣٤٨هـ/ سبتمبر ١٩٢٩م) كتب أحد تلاميذ الشيخ رشيد رضا وهو (المرشد الشيخ) محمد بسيوني عمران[1] (إمام مهراجا جزيرة سمبس بورنيو (جاوة) إليه بكتاب يقترح فيه على (العلامة السياسي الكبير) أمير البيان أن يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيال يبين فيه لقراء المنار أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط والذل، ويبين أسباب رقي أهل أوربا وأمريكا واليابان، وما إذا كان يمكن للمسلمين مجاراة هؤلاء في سباق الحضارة مع المحافظة على دينهم الحنيف.

(١) محمد بسيوني عمران: هو ابن محمد عمران مهراج إمام قاضي سمبس، أرسله أبوه إلى مكة المكرمة ليتلقى فيه علوم الدين والعربية، توجه بعدها مع أخيه الأصغر إلى مصر، وذلك في سنة ١٣٢٨هـ ونزل في بيت مصلح الأمة رشيد رضا، الذي عرفه من خلال المنار التي كان قد اشترك فيها قبل سنتين من قدومه مصر، فسلك وأخوه في الأزهر فترة، ثم انتقلا إلى مدرسة الدعوة والإرشاد التي أسسها رشيد رضا. عاد بسيوني إلى وطنه سمبس في ١٣٣١هـ، ويبدو أنه ورث الإمامة عن أبيه، واشتهرت مواقفه في الدعوة والإرشاد، كما كانت له مشاركة في عدد من المواقف مع رجال الإصلاح، وكان من المواظبين على مراسلة صاحب المنار واستفتائه في الأمور الدينية والدنيوية. انظر: المنار، ٢٢/ ٦٣١، ١٩٢١. وكان يترجم له بعض الرسائل إلى اللغة الملاوية، مثل: رسالة الصلب والفداء، كما ترجم رسالة شكيب أرسلان هذه إلى الملاوية، انظر: شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عامًا، مرجع سابق، ص٤٩٩.

فأحال السيد رشيد رضا الرسالة إلى الأمير، ويظهر أن الرسالة حرَّكت في نفس الأمير كوامنَ، وأثارت شجونًا، وأن السؤال كان يلح في خاطره[١]. ولكنه أرجأ الجواب عن هذه المسألة لكثرة شواغله، وإلى أن عاد من رحلته إلى إسبانيا، حينها كانت انفعالات الزيارة إلى بلاد المجد المفقود وعواطفها ما زالت مشبوبة في نفسه، كما شاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير البربر في المغرب، فكان جوابه- كما يقول رشيد رضا- منفعلاً بهذه المؤثرات[٢].

وقد أرسل شكيب جوابه إلى رشيد رضا بعد نحو سنة، فراجعه وكتب عليه مجموعة من «التصحيحات والاستدراكات»، وتناقش حولها مع شكيب في مراسلاتهما. حتى اعتمدا النسخة الأخيرة بعد ثلاثة شهور تقريبًا.

---

(١) ويبدو أنها لم تكن المرة الأولى التي يطرح هذا السؤال على شكيب أرسلان، فقبل رسالة بسيوني عمران هذه بشهور قليلة، وتحديدًا في (١٨ رمضان ١٣٤٧هـ/ ٢٨ فبراير ١٩٢٩م) كتب رشيد رضا إلى شكيب أرسلان يعلمه أن «ابن المدينة» - اسم مستعار لأحد الكتاب في ذلك الزمان- اقترح في مقال له نشر في جريدة «العهد الجديد» البيروتية- في ذلك الأسبوع- على شكيب أرسلان أن يبين القول الفصل في «الخطة التي يجب على العرب ترجيحها في سياستهم وتجديد حضارتهم وسيادتهم». ورأى رشيد رضا أن أرسلان هو الأجدر ببيان «خطة التجديد» هذه، ببلاغته ومعارفه، على أن يحتفظ رشيد بحقه في التعقيب عليها ومراجعتها؛ لأنهما «مشتركون في الخطة». ولكن يبدو أن أرسلان لم يتحمس حينها للجواب عن الاقتراح، وذلك لمجهولية ابن المدينة، على الرغم من تكرار رشيد رضا ضرورة الإجابة عنه. شكيب أرسلان، رشيد رضا أو إخاء أربعين عامًا، دمشق، مرجع سابق، ص٤١٢-٤١٣، ٤٦٠.

(٢) شكيب أرسلان، «لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟»، مرجع سابق، ص٤-٥.

نُشر الكتاب أول ما نشر في مجلة المنار[1]، ثم طُبع في كتيب على حدة وقدّم له رشيد رضا وحلاه ببعض العناوين، وأعيد طبع الكتاب مرات[2] .

ثانيًا: سؤال التقدم والتخلف[3]

سؤال التقدم ليس بالمستجد أو المستحدث، بل هو سؤال قديم ترجع جذوره إلى ابن خلدون، الذي استطاع بفضل وعيه بواقعة الانحطاط، وبحثه بحثًا علميًا عن الأسباب الواقعية المشخّصة لها، أن يضع حدًا لحالة الانحطاط الحضاري الفكري، ومثّل بذلك بداية اليقظة والنهوض في نظر كثير من الدارسين. وقد

(١) كان نشر الجواب في شهر (رجب ١٣٤٩هـ/ ديسمبر ١٩٣٠م)، في المجلد ٣١ من مجلة المنار، في ثلاث حلقات متتالية.

(٢) طبعتها المنار ثلاث مرات، كان آخرها سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م)، وقد أضيفت إليها زيادات وتعليقات بقلم شكيب أرسلان نفسه. ثم طبع بعد ذلك طبعات كثيرة، أخذت عن الطبعة الثالثة للمنار.

(٣) كثيرة هي الدراسات التي عنيت بالبحث في تاريخ عصر النهضة والتيارات الفكرية التي نشأت منذ أواخر القرن الثامن عشر، بل تكاد تستعصي على الحصر. وقد اعتمدنا في فقرتنا هذه على عدد من أهم هذه الدراسات، آثرنا الإشارة إليها مسبقًا، إزاحة لعبء مطالعة الهوامش عن كاهل القارئ في مسألة ليست مقصودة بذاتها في بحثنا هذا، بقدر ما ترمي إلى إعطاء فكرة عامة للمعالم الفكرية لقضية التقدم وأسئلتها حتى الربع الأول من القرن العشرين. ومن هذه الدراسات المعتمدة:

ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة: كريم عزقول، بيروت، دار النهار، ١٩٦٨م.

خالد زيادة، المسلمون والحداثة الأوربية، القاهرة، دار رؤية، ط.١، ٢٠١٠م.

فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، عمان، دار الشروق، ط.٣، ١٩٨٨م.

علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩١٤م، بيروت، الأهلية، ط.٤، ١٩٨٧م.

محمد الناصر النفزاوي، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية ١٨٣٩-١٩١٨، صفاقس، دار محمد علي الحامي وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ط.١، ٢٠٠١م.

أصبح الأثر الذي خلفه ابن خلدون على الصعيد النظري الخالص في العصور الحديثة لا يعادله أثر أي مفكر آخر. بل إن طريقة ابن خلدون في طرح المسألة العمرانية وفي الجري المستمر وراء تحديد علل الانحطاط وبالتالي علل التقدم، تكاد تستقطب كل الجهود التي بذلها المحدثون، وتقع في مركز القلب منها.

ومع أن نظرية ابن خلدون في حركة التاريخ تتقدم نحو الأسوأ، ولا تقدم إلا فرصة- شبه مستحيلة بحكم القوانين الاجتماعية- للرجوع إلى الخلف، أي إلى مراحل قوة الدولة وفتوّتها وعصبيتها، فإننا يمكن أن نتصور- مع فهمي جدعان- أن وعي واقعة الانهيار، انهيار الحضارة هو شرط الدخول في دور جديد يُدعى فيه أبناؤه إلى تخطي هذه الواقعة، وإلى السير في طريق التقدم نحو الأفضل.

لكن ما الذي أيقظ المسلمين ودفعهم إلى الوعي بواقع الانحطاط والتأخر الذي يعيشونه بالقياس إلى الأمم الأوربية، ومن ثم حفزهم إلى التفكير في علل تأخرهم وتقهقرهم، وفي سبل الخروج منه للحاق بركب الأمم المتقدمة؟

إن التوغل العسكري المتبادل بين العثمانيين والأوربيين كان من أهم أسباب الوعي بما صارت إليه أمم أوربا من تفوق ورقي. وقد أصبح معروفًا- خلافًا لبعض المشككين المؤمنين بقضية الانبعاث الذاتي التي كانت في مرحلة التحضير[1]- أن الحملة الفرنسية على مصر في (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م) كانت

---

(١) انظر: محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت، ص ٨١-٩٦.

الصدمة الكبرى، وإن لم تكن الأولى، التي أيقظت العرب على حقيقة تأخرهم عسكريًا واقتصاديًا وعلميًا.

منذ ذلك الحين أصبحت مسألة التقدم- بإشكالاتها المتشابكة- قطب الرحى الذي تدور حوله مساهمات المفكرين المسلمين الذي وعوا بظاهرة التأخر والانحطاط التي أحاطت بالعالم الإسلامي (خلافًا لكثيرين لم يلقوا لذلك بالاً ولا شغلهم فكرًا).

ومساهمات المفكرين المسلمين في معالجة هذه المسألة قد تفاوتت بحسب الظروف التاريخية والسياسية، وعمق التجربة الشخصية، والتكوين الثقافي لكل منهم. وفيما يأتي إطلالة خاطفة على أهم المقاربات التي سلكها المفكرون المسلمون قبل شكيب أرسلان في معالجة هذا السؤال (سؤال التقدم)، ولهذا أهمية بالغة في فهم المؤثرات والمنابع التي شكلت فكر أرسلان:

أ. المقاربة العلمية

كان من الطبيعي لأوائل المتصلين بالحضارة الغربية ومنتجاتها، لاسيما من اتصل منهم بعلماء الحملة الفرنسية في مصر، كالشيخ حسن العطار (١١٨٠-١٢٥٠هـ/ ١٧٦٦- ١٨٣٥م) أن ينحصر نظرهم في حدود التقدم العلمي والتقني الذي حازه الغرب، وأن يتصوروا أن مشكلة التأخر يمكن علاجها بحيازة

العلوم والمعارف التي توصل إليها الغرب، أو بعبارة الشيخ حسن العطار: «إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها».

وبتأثير من هذه الرؤية شرع محمد علي باشا بإرسال البعثات العلمية إلى أوربا، وفرنسا بالذات، لتحصيل علومها. وبسعي من حسن العطار تم إرسال تلميذه رفاعة الطهطاوي (١٢١٦- ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١-١٨٧٣م) إمامًا لأول بعثة إلى باريس في عام (١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م). عاد الطهطاوي إلى مصر بعد خمس سنوات وقد وعى بحدة واقعة انهيار الحضارة الإسلامية، وشغله سؤال ابن خلدون: كيف تنهار الحضارات ولماذا؟ فكان أن ترجم كتاب مونتسكيو «تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم»[1]. وكان من الطبيعي أن يؤرقه السؤال عن السبيل إلى التمدن والتقدم. فعرض رؤيته للتقدم في كتابيه: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، و«مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية».

وخلاصته: أن للتمدن أصلين؛ معنويًا: وهو التمدن في الأخلاق والعوائد والآداب، يعني التمدن في الدين والشريعة، وتمدنًا ماديًّا: وهو التقدم في المنافع العمومية، ومداره على العمل وصناعة اليد والاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة. ومن أجل أبهة الإسلام وترقي الديار الإسلامية درجة الكمال العليَّة

(١) شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ترجمة كتب عديدة تدور حول أسباب تقدم الأمم وانهيارها، فمن ذلك مثلاً كتاب: سر تقدم الإنكليز السكسونيين، للفرنسي إدمون ديمولان، ترجمه أحمد فتحي زغلول بك، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٨٩٩م.

لا بد من أخذ «العلوم النافعة والمنافع العمومية وتقديمها والتقوّي بها». وأما الأصل الأول للتمدن فمتحقق في الإسلام وشريعته.

وعلى هذا النحو من مقاربة مسألة التقدم جاءت أفكار علي مبارك[١] (١٢٣٩-١٣١١هـ/ ١٨٢٤-١٨٩٣م) فهو يرى ببساطة أن اتساع دائرة العلم والمعلومات هو الذي نقل البلاد الأوربية من حالة التوحش والخشونة إلى درجات الكمال والسطوة. وأن ما حدث في الإسلام من موانع عاقت التقدم عن مسيرته الأصلية فإنما يرجع إلى أمرين؛ أولهما: انحسار تعظيم العلم وأهله، وثانيهما: انحراف خلف الأمة عن سيرة سلفها بنبذهم مصالح الأمة العمومية وجريهم وراء شهواتهم الخاصة.

ب. المقاربة السياسية

يمثل خير الدين التونسي[٢] (١٢٢٥- ١٣٠٨هـ/ ١٨١٠- ١٨٩٠م) نمطًا آخر من المواجهة مع المدنية الأوربية، التي اتصل بها اتصالاً مباشرًا. فازداد وعيه بحقيقة التقدم الغربي وشرائطه؛ فربط بين التقدم العمراني وبين العدل والحرية. فتحصيل التقدم في المعارف والعلوم وتحقيق المنعة والقوة لا يمكن له أن يتم بغير إجراء تنظيمات سياسية قائمة على العدل والحرية. وعليه قام مشروع خير الدين

(١) انظر آراءه في كتابيه: علم الدين، الإسكندرية، مطبعة المحروسة، ١٨٨٢م؛ والخطط التوفيقية، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٠٦هـ.

(٢) انظر آراءه في: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس، مطبعة الدولة، ١٢٨٤هـ.

على التصدي لثلاث مشكلات أساسية قدم لها حلولاً تناسبها: مشكلة تقدم أوربا وضرورة الأخذ عنها، مشكلة الحكم المطلق الاستبدادي وضرورة أن يستبدل به نظام مقيد بالشرع والقانون والعدل، ومشكلة التخلف والانهيار العمراني وضرورة الخروج منه ببناء نظام عصري تكون فيه الحرية شرطًا لازدهار الاقتصاد والعمران، على نحو يشبه النظام الاقتصادي الرأسمالي الأوربي.

وعلى هذا النسق ذاته وحاملاً نفس الهموم والقناعات الفكرية سيأتي معاصر آخر لخير الدين التونسي هو أحمد بن أبي الضياف[١] (١٢١٩- ١٢٩٢هـ/ ١٨٠٤-١٨٧٦م) . والرجلان كلاهما سياسيان محترفان ومسؤولان في قمة الهرم السياسي. لذلك كانت شؤون الجهاز العلوي وأمر السلطة الأعلى هو الذي يوجه اهتمامهما بالدرجة الأولى؛ لذا بدا لخير الدين التونسي، خصوصًا، أن تحقيق التقدم لن يتم إلا من خلال الأجهزة العلوية الإدارية والقانونية والعسكرية. أما دور القاعدة في عملية التقدم وسلوك الأمة وعقليتها فلم يُهيأ لخير الدين أن يوليه الاهتمام الذي هو جدير به.

ويأتي عبد الله النديم[٢] (١٢٦١- ١٣١٤هـ/ ١٨٤٥- ١٨٩٧م) ليكشف عن رؤية أخرى لأسباب التقدم الأوربي، فتحدث عن توحيد اللغة، وتوحيد السلطة، وتوحيد الجامعة الدينية، والحلف الدفاعي ضد أي مسٍّ بأوربا. كما

(١) انظر آراءه في: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، الشركة التونسية، ١٩٨٥م.
(٢) انظر آراءه في: سلافة النديم، القاهرة، المطبعة الجامعة، ١٩٠١م.

تحدث عن حرية الفكر والاستثمار وتشجيع الصناعات والابتكارات، ومكافحة الأمية، والأخذ بنظام الشورى السياسي.

ومع أن النديم يقرر أن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه؛ فإنه يحث علماء المسلمين على المشاركة في شؤون السياسة سعيًا لنهوض الأمة، وعدم تكريس حياتهم للعلوم الدينية فحسب.

والنديم في رؤيته هذه للتقدم الغربي يتفق مع جمال الدين الأفغاني الذي رأى أن داء المشرق الإسلامي إنما يكمن في انقسام أهليه وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، وأن خلاصه لا يكون إلا بالاتحاد والوحدة، وذلك من خلال صيغة اجتماعية سياسية اقترحها، وهي (الجامعة الإسلامية) و(الوحدة الإسلامية).

ولا يمكننا أن نغفل في هذا السياق أيضًا مساهمة عبد الرحمن الكواكبي[١] (١٢٧١- ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤-١٩٠٢م) التي تتلخص في النظر إلى ظاهرة الاستبداد السياسي باعتبارها علة تقهقر العرب والمسلمين، وأن الحل الأمثل للخروج من حالة الفتور العام أو التخلف هو إحلال الحرية والشورى والنظم التمثيلية محل النظم الاستبدادية.

---

(١) انظر آراءه في كتابيه: أم القرى، وطبائع الاستبداد.

ج. المقاربة الأخلاقية

لقد شعر كثير من مفكري الإصلاح والنهضة أن لأخلاق الغربيين يدًا في تطوير حضارتهم وتقوية نفوذهم حتى تمكنوا من السيطرة على الشرق بكامله. فأشادوا بنشاطهم ومثابرتهم على العمل، وتعاونهم بروح من الألفة لا يحوِّلها طموحُهم إلى منافسة خسيسة. وامتدحوا في الغربي اتّكاله على النفس أيضًا وشجاعته في مجابهة الصعوبات، وصدقه وصراحته، ومحافظته على النظام، وتضحيته بنفسه في سبيل الغير أو الوطن.

وكأن هؤلاء المفكرين وازنوا بين هذه الخلال الغربية والآفات الخلقية التي رأوها في مواطنيهم؛ فأحسوا بأنها من العوامل التي ساعدت على تخلف الشرقيين، وفي مقدمتها الكسل والخمول، والجهل أو الاستسلام للقضاء والقدر، أو الركون إلى أمجاد الماضي بدلاً من الجهاد ليمحوا تخلف الحاضر[١].

وممن اعتمد هذه المقاربة وأولاها أهمية كبيرة الشيخ مصطفى الغلاييني[٢] (١٣٠٢- ١٣٦٤هـ/ ١٨٨٥-١٩٤٤م) الذي رأى أيضًا أن ضعف التربية وفساد الأخلاق هما السببان الرئيسيان في الانحطاط الذي يعاني منه العرب والمسلمون في العصر الحديث. ومع أنه قد شارك في نشاطات جمعية الاتحاد والترقي

(١) نازك سابا يارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، بيروت، نوفل، ط.٢، ١٩٩٢م، ص ٣٣٨.

(٢) انظر آراءه في كتابه: أريج الزهر: الثورة الأدبية وثورة الأخلاق والمبادئ، بيروت، المكتبة الأهلية، ١٩١١م.

السياسية، فإنه لم يكن يعتقد أن الترقي يمكن أن ينال من طريق الحكومة أو السياسة، ذلك أن «نهوض الأمم وقعودها وتقدمها وتأخرها وحفظ كيانها وانهيار مكانتها كل ذلك أثر من آثار أخلاقها.. فحيث وجدت الأخلاق الصحيحة وجدت الفضيلة، وحيث ركزت الأعمال على دعائم القلوب الحرة، وبنيت على أسس الوجدانات الفاضلة، فهناك الأمم الراقية والشعب الحي، وحيث فسدت الأخلاق وتقوضت دعائم الطباع الحرة، فهناك الشعوب السافلة والأمم المنحطة».

ومن المفكرين الذين اعتمدوا هذه المقاربة أيضًا، علي يوسف (١٢٥٢-١٣٣١هـ/ ١٨٣٦-١٩١٣م)، وعبد القادر المغربي[١] (١٢٨٤-١٣٧٥هـ/ ١٨٦٧-١٩٥٦م)، ومحمد فريد وجدي[٢] (١٢٩٥-١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨-١٩٥٤م)، ومحمد كرد علي[٣] (١٢٩٣- ١٣٧٢هـ/ ١٨٧٦-١٩٥٣م)[٤].

د. المقاربة الفكرية والتربوية

إن الثورة على الجمود والتقليد تشكل أعظم إسهام قدمه الشيخ محمد عبده في تاريخ الإسلام الحديث. والجمود في نظر محمد عبده ليس من طبيعة الإسلام، ولكنه علة عرضت على المسلمين عندما دخلت على قلوبهم عقائد

(١) من كتبه في ذلك: الأخلاق والواجبات، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٣٤هـ.
(٢) من كتبه في ذلك: المدنية والإسلام، القاهرة، المطبعة الهندية، ١٩١٢م.
(٣) من كتبه في ذلك: القديم والحديث، القاهرة، المكتبة التجارية، ١٩٢٥م.
(٤) وبعض هؤلاء كان لأرسلان ـ الذي يعتمد نفس مقاربتهم الأخلاقية ـ بهم صلة متينة، كعلاقته المبكرة مع الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد، وصداقته مع محمد كرد علي.

أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم. وكان للسياسة اليد الطولى في تمكينها فيهم. وللجمود مفاسد وجنايات على اللغة والسياسة والشريعة والتعليم؛ فمن ورائه تنكشف مشكلة انحطاط المسلمين، وبالقضاء على هذا الجمود النفسي والعقلي تكون أولى الخُطى نحو الخروج من حالة الانحطاط، وتحقيق المدنية.

ومن أجل تحقيق هذه الثورة الفكرية والتربوية شدد تلميذه رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥-١٩٣٥م) على دور النخبة المفكِّرة الموحَّدة المندرجة في سِلك جمعيات تسهم في إبراز ثمرات هذه النخبة وتدعمها وتنشرها في المجتمع. ففي رأيه أن المعيار الذي يُعرف به تقدم الأمم وتأخرها وحياتها وموتها هو الجمعيات والشركات. وأما قانون الترقي والانحطاط فيتلخص في ثنائية الظلم والصلاح، والصلاح ليس سوى عمارة الأرض وإدارتها، ومبدؤه تعميم التربية والتعليم. وباعتماد ذات المقاربة دارت أفكار آخرين، أمثال: الطاهر ابن عاشور[١] (١٢٩٦- ١٣٩٣هـ/ ١٨٧٩-١٩٧٣) وعبد الحميد بن باديس[٢] (١٣٠٧-١٣٥٨هـ/ ١٨٨٩-١٩٤٠م).

لقد كان أمرًا مفروغًا منه لدى المفكرين المسلمين منذ بدايات القرن التاسع عشر أن الإسلام مرادف للتمدن والتقدم، وأن عملية تخطي التأخر والانحطاط والاتجاه نحو التقدم والترقي لا يمكن أن تتم إلا من خلال المعطيات الأساسية

(١) انظر آراءه في كتابيه: «أليس الصبح بقريب»، حلب، دار الملتقى، ٢٠١٠م؛ «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام»، تونس، الشركة القومية للنشر، ١٩٦٤م.

(٢) انظر آراءه في : «آثار ابن باديس»، تصنيف عمار الطالبي، الجزائر، دار مكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٨م.

للإسلام نفسه. ولكن ما لم يتم الإجماع عليه بين هؤلاء المفكرين هو الأساس الذي ينبغي التركيز عليه أكثر من غيره في عملية تحقيق الترقي أو التقدم. وقد كان للظروف الزمانية والموضوعية والفكرية دور كبير في تغيير زوايا النظر إلى المشكلة الأساسية المطروحة.

وهنا يأتي دور الأمير شكيب أرسلان ليدلي بدلوه في هذه القضية الشائكة، فكيف عالج شكيب هذه المسألة، وأيَّ مقاربة سلك؟

تحليل الرسالة

قد يتوقع من يسمع عنوان هذه الرسالة الشهيرة «لماذا تأخر المسلمون...» لمؤلفها ذائع الصيت أنه أمام بحث تحليلي معمَّق يُخضع للنظر والتأمل الأسبابَ والعوامل التاريخية التي أحاطت بالمسلمين وأدت إلى تأخرهم، وتلك التي ساهمت في تقدم الأوربيين، أو أنه أمام بحث فلسفي يقدم الأصول والأسس التي تبنى عليها رؤية متكاملة في التطور التاريخي والتقدم الحضاري. ولكن الظروف التاريخية والشخصية التي كتبت فيها الرسالة كان لها دور كبير في إخراجها على النحو الذي ظهرت به: رسالةً تحمل من التثوير والاستنهاض والتنبيه على الآفات الحاضرة أكثر مما تقدم من رؤية فلسفية أو نظرة تاريخية عامة.

وقبل الخوض في تحليل منهج أرسلان في معالجة مسألته «التأخر والتقدم» والغاية التي لأجلها ظهرت على هذا النحو، لا بد أن نبين بنية الرسالة والمحاور الأساسية فيها:

(١) بنية الرسالة

يمكن تقسيم رسالة شكيب أرسلان إلى مقدمة وقسمين رئيسيين: أما المقدمة، ففيها تقرير واقع التخلف والانحطاط، مقارنة بالماضي المزدهر. ويتناول القسم الأول: أسباب تأخر المسلمين، أما القسم الثاني: فيضم أسئلة التقدم وإشكالاته، وخلاله يعرض أرسلان لبعض القضايا الجدالية المتصلة بمسألة التقدم والتأخر.

أولاً: مقدمة في عالمية التأخر الإسلامي وحقيقة الماضي المجيد

يستفتح أرسلان رسالته الجوابية بالتصديق على الحقيقة الأولى المضمرة في سؤال الشيخ الملاوي، المتمثلة في واقع التأخر والانحطاط الذي أصاب الشعوب الإسلامية على اختلاف نسبي في درجات أو دركات هذا التأخر والتقهقر. هذا الواقع الذي كان ينظر إليه دومًا بعين المقارِن بين واقعين: تاريخي يتمثل في الماضي الإسلامي المجيد الذي عاشه المسلمون قرونًا طويلة، وواقع التقدم والترقي الذي تعيشه شعوب أوربا وأمريكا واليابان.

إن هذا التصور التاريخي[1] هو الذي سيزج بكل رجالات النهضة والإصلاح في خضم أسئلة التقدم والتخلف. وأول هذه الأسئلة هو السؤال عن السبب أو الأسباب التي بها ساد المسلمون وشادوا وتفوقوا على أمم الأرض مجتمعة.

وجواب أرسلان غير مخالف لما ذهب إليه من سبقوه من أعلام النهضة، أن السبب هو الإسلام، فبه ظهر العرب من جزيرتهم على الأمم كلها، وبه انتقلوا من الفرقة إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية ومن القسوة إلى الرحمة، وتبدلوا بأرواحهم أرواحًا جديدة صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ومجد وعرفان وثروة، وفتحوا نصف الأرض في نصف قرن.

(١) هذا السؤال لن يتعرض لنقد جذري إلا في أواسط القرن العشرين مع سيد قطب بالذات حين رآه سؤالاً مغلوطًا، فلا المسلمون مسلمون- وهذا لا يختلف فيه كثيرًا عن شكيب أرسلان وغيره من رجال النهضة- ولا الغرب متقدمون، إذ لا تقدم ولا حضارة بغير الإسلام. وعليه فليس في الغرب ما يجب علينا اللحاق به، ويغدو السؤال الجوهري: لماذا خرج المسلمون من دينهم، وكيف يمكننا إعادتهم إليه؟ وكيف يمكننا إخراج المسلمين- وغيرهم من باب أولى - من الجاهلية التي يرسفون فيها؟ بل تطور السؤال مع أبي الحسن الندوي فأصبح: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ وإذا كان هذا السؤال قد أبقى على مسلمة «تأخر المسلمين وانحطاطهم» أمرًا مشتركًا، فإنه قلب قضية التقدم وعكس سؤال شكيب أرسلان ـ الذي هو سؤال رجالات عصر النهضة على اختلافهم — ليصبح تساؤلاً يتضمن تشكيكًا في معيارية التقدم الغربي، وأهليته ليكون محلاً للاقتداء أو الاهتداء.

وقد ترافق هذا النقد لسؤال التقدم في العالم الإسلامي مع نقد جذري مماثل، ولكنه في الضفة الغربية، من قبل منظري تيار ما بعد الحداثة الذين نفوا عن التقدم الغربي صفته، ورأوا فيه كلَّ أنواع التدهور والانحطاط الذي لم تكن آثاره بادية للعيان في القرن التاسع عشر، أو قبل الحربين العالميتين.

ولكن، هل يعني هذا أن الإسلام قد زال من بين المسلمين؟! كيف هذا والقرآن لم يزل بين أيديهم يتلونه ليل نهار، وكتبهم الدينية لم تتغير ولم تندثر؟!

وجواب أرسلان على هذا جريء وشديد الوقع: نعم، لقد تغير المسلمون ولم يبق فيهم من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا الترنم به، وهم وإن لم يتحولوا عن الإسلام فإنهم قد تحولوا عن تعاليمه ومبادئه الأخلاقية؛ الأمر الذي قضى بانحطاطهم وتأخرهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال / ٥٣].

ثانيًا: أسباب تأخر المسلمين

يعدد شكيب أرسلان مجموعة من الآفات والرذائل الخُلُقية والنفسية التي حاقت بالمسلمين فقضت بتأخرهم وتخلفهم. ويضعهم دومًا في مقابلة ومقارنة مع حال أجدادهم بالأمس، وحال الإفرنج واليابان اليوم. ويلحق بهذه الرذائل بعض الأسباب الفكرية:

- **الأسباب الأخلاقية**

أ. الكسل والجبن والبخل: ينعى أرسلان على الأمم الإسلامية أنها تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية، ولا بيع أنفس، ولا مسابقة إلى الموت، ولا مجاهدة بالمال، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في النصر،

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد/ ٧]. وأنهم يعتمدون في استحقاق النصرة على كونهم مسلمين موحدين، ظنًّا منهم أن ذلك يغنيهم عن الجهاد بالنفس والمال. أما الإفرنج فإن تضحيتهم بالنفوس والنفائس في الحرب العالمية الأولى تفوق الوصف.

ويضيف أرسلان أن المسلمين معرضون عن إخراج الزكاة، زاهدون في التبرع لأجل المشروعات العامة، بل لقد محوا رسوم الأوقاف، والمؤسسات الخيرية التي تركها أجدادهم.

وخذلانهم الأعظم، كما يقول أرسلان، هو في تقاعسهم عن دعم المسلمين: ففي الفتنة التي وقعت في فلسطين سنة (١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م) بين العرب واليهود، استنجد اليهود بإخوانهم في العالم، فأمدوهم بمليون جنيه، وبلغت تبرعات المسلمين كلها (١٣) ألف جنيه. وفي حربهم على أهالي الريف المغربي، حشد الإسبان (٣٠٠) ألف مقاتل ومئات الطائرات وتحالف معهم الفرنسيون، وأرسل الأمريكان طائراتهم من نيويورك نجدةً لفرنسا وإسبانيا، أما الدعم الإسلامي لأهل الريف المغربي فقد بلغ، بعد سنة من شن الحرب عليهم، (١٥٠٠) جنيه!

ب. الخيانة: ولم يكتفوا بهذا الخذلان والتخاذل، بل أقدم بعضهم على خيانة دينهم ووطنهم صراحة، كما حدث في المغرب، إذ تألبت فئة على محمد بن عبد الكريم ممالئة الفرنسيين والإسبانيين ابتغاء الحظوة عندهم. أو كما حدث في سوريا

أيام الثورة على فرنسا، وما وقع لمجاهدي فلسطين الذين يقاتلون الإنكليز من أجل الإبقاء على عروبة فلسطين. والأنكى من ذلك خيانة الخواص من وزراء ومفتين، كالذي أقدم عليه الوزير المقري ومفتي فاس من تأييد دعوة الفرنسيين لإخراج البربر من الإسلام والاستقلال بالظهير البربري.

ج. **فقدان الحمية لنشر الدين:** ففي الوقت الذي ينفق فيه النصارى ملايين الجنيهات على تنصير المسلمين من البربر وغيرهم حول العالم، فإن أحدًا من المسلمين لم يتداعَ لنصرة البربر وتزويدهم بالمعلمين والمرشدين للإبقاء على إسلامهم.

د. **فساد الأخلاق ولاسيما الأمراء والعلماء:** وهذا من أعظم أسباب البلاء بحسب رؤية شكيب، ويفحش أثره عندما يستشري في طبقة الأمراء والحكام، الذين يظنون أنهم مالكو شعوبهم، ومن حقهم فعل ما يشاؤون بها؛ أو عندما يستشري في العلماء المتزلفين لأولئك الأمراء، المتقلبين في نعمائهم، الناكصين عن القيام بواجبهم المتمثل في تقويم أود الأمراء، والنصيحة لهم بما فيه صلاح الأمة[1].

هـ. **اليأس والقنوط:** بعد أن كان العرب أشهر الأمم في الشجاعة والإقدام، أصبحوا أكثرهم جبنًا وهلعًا، وقد انضم إلى ذلك اليأس والقنوط، وهذه العلة من أخطر

---

(١) لقد وفّى الشيخ رشيد رضا هذه المسألة تفصيلاً في مقاله «حال المسلمين في العالمين ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين»، مجلة المنار، ٩/ ٣٥٧.

ما حل بالمسلمين من مفاسد، فقد أورثتهم الاعتقاد بأن الإفرنج هم الأعلون على كل حال، وأنه لا سبيل إلى مغالبتهم بوجه من الوجوه.

ودعم هذا الإحساس لديهم أولئك «المسلمون الجغرافيون» الذين يتزلفون إلى الأجانب ويتباهون بسياستهم اللادينية، ويشيعون القول بأنه لا قبل لأحد بالتصدي للأوربيين؛ لأنهم مالكون لآلات القتال الحديثة.

وهذا في نظر أرسلان قلب للحقائق والواقع؛ لأنه ليست الدبابات والطيارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم وتوقد نيران الحمية في صدور البشر، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبابات، فما هذه إلا مواد صماء، والمادة لا تقدر أن تعمل شيئًا من نفسها، وإنما الذي يعمل هو الروح والفكر والعزيمة والإرادة التي يقوم عليها العلم الحديث.

ولكن الحقيقة هي أن المسلمين قد وهنوا وبخلوا وعزت عليهم الحياة، وأصبحوا غثاء كغثاء السيل، في قلوبهم وهنٌ وحبٌّ للدنيا وكراهية للموت، أي بخلٌ وجبنٌ يتخطيان مجرد انكسار القوى المعنوية إلى حالة مرَضيَّة تشل الجسم والعقل معًا.

• **الأسباب الفكرية**

ينتقل أرسلان إلى الحديث عن بعض الأسباب الفكرية التي أدت إلى انحطاط المسلمين:

أ. الجهل والعلم الناقص: اعترف شكيب أرسلان بأثر الجهل في تأخر المسلمين ولكنه مرَّ على هذه العلة مرور الكرام، ولم يعقب عليها إلا بكلمات قليلة، مما يعكس رؤيته الأخلاقية التي تركزت، بحسب ما أملته ظروف الاستعمار حينها، على الإصلاح الأخلاقي كطريق أساسي للتحرر والاستقلال. وهو ما عبر عنه ببلاغة في قوله: «الأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف».

ب. الجمود والجحود: «أضاع الإسلام جاحدٌ وجامدٌ»، يرى أرسلان أن الإسلام قد جنت عليه فئتان من الناس: فئة جامدة لا تريد أن تغير شيئًا، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي، ظنًّا منها أن الاقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار.

والفئة الأخرى جاحدة: تريد أن تلغي كل قديم، دون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، وتأبى إلا أن تُفرِغ المسلمين وسائر الشرقيين وتخرجهم عن جميع مقوماتهم.

ويسخر أرسلان من هذه الفئة التي يطلق عليها اسم «المسلمون الجغرافيون»[١] وينبههم إلى أن أساتذتهم وأسيادهم الفرنجة أنفسَهم حريصون كلَّ الحرص على قومياتهم وثقافاتهم وآدابهم ومنجزات أممهم، كما يبدو ذلك بوضوح لدى الإنكليز والفرنسيين والألمان وغيرهم. ولو كان هؤلاء «المسلمون الجغرافيون» يحترمون أنفسهم لاقتدوا باليابان التي تبنت المدنية الغربية وجملة منجزاتها العصرية دون أن تستجيب لنداء التفرنج، أو أن تتخلى عن شخصيتها، ودون أن تُنبَز مع ذلك بالرجعية. ولكان لهم في شبان اليهود وأقوال وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية عبرة ودروس، فإنهم يجاهدون لإحياء اللغة العبرية التي لا يُعرَف مبدأ تاريخها، ويحرصون على أن تكون اللغةَ الجامعة لليهود الباحثين عن إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

وأما ردُّه على الفئة الأولى، فقد اختار أرسلان أن يظهر هول الغوائل والمصائب التي خلفها الجمود على القديم: فهو الذي مهد لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربتها؛ إذ احتجوا بأن التأخر الذي عليه العالم الإسلامي إنما هو ثمرة تعاليمها.

والجمود هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون؛ لأنه جعل الإسلام دين آخرة فحسب. والجمود هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية؛ فحَرَم المسلمين من ثمراتِ هذه العلوم.

---

(١) وهذا من المصطلحات المبتكرة لشكيب أرسلان، وقد انتبه لذلك رشيد رضا، وعلق عليه في هامش الرسالة.

ويمضي أرسلان قائلاً إن تلك الفئة الجامدة التي تردُّ حالةَ التقهقر إلى القضاء والقدر، وتشيع بذلك روح الكسل والخمول بين المسلمين ليست من الإسلام في شيء، وموقفها باطل بصريح الآيات القرآنية؛ لأن الإسلام دين العمل والكدح والسعي، ليس فيه مكان للتواكل والتسليم؛ بل إن الإسلام هو من أصله ثورةٌ على القديم الفاسد وجَبٌّ للماضي القبيح، وقطع لكل العلائق مع غير الحقائق. وعليه فإن كل علم يفيد الاجتماع البشري يدخل في العلوم الدينية إن لم يكن مباشرة فمن حيث النتيجة.

ثالثًا: أسئلة التقدم وإشكالاته

أ. إمكانية تحقيق التقدم

يؤكد أرسلان أن العالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي، واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة، إذا أراد المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزمًا، ولن يجدوا لأنفسهم على العلم والفن خيرًا من القرآن الذي فيه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٩].

أما أولئك المثبِّطين الذين تملَّك أنفسهم اليأس والقنوط أو التفرنج، أولئك الذين كانوا يبثُّون في الناس القول بعدم قابلية المسلمين للقيام بمشروعات عمرانية ومادية كتلك التي يقوم بها الأوربيون؛ فقد قدم أرسلان أمثلة عديدة تحطم

عقيدتهم المشؤومة تلك، فمن ذلك ما فعله رجال أمثال محمد طلعت حرب في مصر حين أنشأ بنك مصر الوطني، وما أعقبه من إنشاء شركة الملاحة البحرية، وأمثال أحمد حلمي، وعبد الحميد شومان اللذَين أسسا في فلسطين البنك العربي والبنك الزراعي وعددًا من الصناعات النسيجية والفنية والسياحية؛ مما قلب التوقعات السائدة حول قدرة المسلمين على الاستقلال بمشاريع مادية بنَّاءة.

ب. الصلة بين التقدم والدين، وهل النهضة دينية أم قومية؟

يقرر أرسلان تقريرًا واضحًا قاطعًا، أن الصلة بين الدين وانهيار الحضارات أو تقدمها منفكَّة تمامًا، إذ «إن لهذه الحوادث أسبابًا وعوامل متراكمة، ترجع إلى أصول شتى، فإذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر، تغلبت على تأثير الأديان والعقائد، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها».

فالنصرانية لم تكن سببًا في انحطاط الرومان واليونان من قبلهم، كما لم تكن سببًا في تقدم أوربا الحديث. وأيضًا، ما كانت الوثنية سببًا في تأخر اليابانيين أحقابًا طويلة، وليست هي السبب في تقدمهم وترقيهم الحادث، على الرغم من استمرار تمسكهم بها.

وإذن، كما يقول أرسلان: «فليترك إذن بعض الناس جعل الأديان هي المعيارَ للتأخر والتقدم».

ولكن ألا يناقض أرسلان نفسه، إذ يجعل في مطلع رسالته الإسلامَ هو السببَ الوحيد في حضارة العرب وسائر الشعوب التي اعتنقته؟!

يؤكد أرسلان ـ ومعظم رجالات النهضة ـ أن الاستثناء التاريخي الوحيد على ما قرره آنفًا هو حالة الإسلام، وأن كلمة المؤرخين شرقًا وغربًا قد اجتمعت على القول بأنه سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة، وأنه لم يكن سببًا في انحطاطهم فيما بعد؛ إلا في نظر ثلة من المتغرِّبين الذين يبتغون نشر الثقافة الأوربية بين المسلمين.

ج. ما سبيل التقدم إذن؟

إذا كانت هذه هي الآفات وتلك هي الأسباب التي تفسر تأخر المسلمين وانحطاطهم عن رتب الأمم المتقدمة، فما السبيل إلى اللحاق بركاب تلك الأمم؟

خلاصة جواب أرسلان عن هذا السؤال المحرق: إن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم. إن الواجب على المسلمين لينهضوا ويتقدموا ويعرجوا في مصاعد المجد، ويترقَّوا كما ترقَّى غيرهم من الأمم؛ هو الجهاد بالمال والنفس.. وهو ما يسمونه اليوم «التضحية».

والخلاصة الجامعة: أن المسلمين يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرَّضهم عليه كتابهم، أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على إسلامهم، كما بقي أولئك على دينهم، بل هم بذلك أولى وأحرى، فإن أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذي يعوزنا الأعمال، وإنما الذي يضرنا التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال.﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

لا شك أن مختلف أسباب التأخير التي يشير إليها شكيب أرسلان ليست عللاً حقيقية بقدر ما هي أعراض للعلة الحقيقية، المتمثلة في انحسار المبادئ الأخلاقية أو التربية الأخلاقية من حياة المسلمين. ومن الواضح أن شكيب أرسلان قد لمس في تحليلاته جانبًا مما سبق أن أشار إليه الكواكبي في «أم القرى»، لكنه يبدو أكثر قربًا منه من الوقائع الملموسة والأمثلة المحسوسة المستقاة من حياة الأقطار العربية والإسلامية، وذلك على الرغم من منطلقاته الفكرية المثالية التي لم تجد لها فرصة للتطبيق العملي؛ فظلت بالتالي بعيدة عن كل أثر اجتماعي شامل، ومحصورة في مشروع فردي وفي حدود الإشكالية القديمة للنهضة كما تجلت في القرن التاسع عشر[١].

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، عمان، دار الشروق، ط.٣، ١٩٨٨م، ص ٤٥٩.

(٢) منهج الرسالة ورؤيتها

لقد ولدت رسالة (لماذا...) في وقت عصيب (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) عقب انهيار الخلافة العثمانية، ورزوح معظم شعوب العالم الإسلامي تحت نير الاستعمار. وقتئذٍ لم تكن حركات التحرر قد استوت على سوقها، واقتصرت المقاومة على فصائل وفرق محدودة هنا وهناك. هذه الظروف السياسية كان لها أكبر الأثر في الرؤية التي قدمتها الرسالة وأسلوب الخطاب الذي اختاره أرسلان لها. ويظهر ذلك من نواح عديدة:

أ. الفئة المخاطَبة: يخاطب شكيب أرسلان في رسالته هذه الشعوب الإسلامية قاطبة، ويحمِّلُها وزر التأخر بسبب الآفات الخُلقية التي أصابتها. كما يضع على عاتقها واجب التقدم من خلال عودتها الواجبة لتعاليم الإسلام التي تقضي بالجهاد بالمال والنفس. وعلى الرغم من أن شكيب أرسلان كان رجلاً سياسيًّا بالدرجة الأولى، وتبوَّأ في حياته مناصب عديدة، فإنه ـ خلافًا لخير الدين التونسي مثلاً ـ لم ير طائلاً من الحديث عن دور الدول والحكومات أو السياسيين في التأخر والتقدم، وهذا منطقي في وقت لم تبق فيه على الحقيقة دول مستقلة، أو حكومات إسلامية قائمة بذاتها. وأما إشارة أرسلان إلى فساد العلماء والأمراء لكونه أحد أسباب الانحطاط، فإنها تحمل في طياتها دعوةً للثورة على هاتين الطبقتين الفاسدتين، أكثر منها رغبةً في إصلاحهما، أو الاعتماد عليهما.

ب. مفهوم التقدم عند أرسلان: قد يظن القارئ لكلام أرسلان أنه يقصر مفهوم التقدم على القوة العسكرية والاستقلال السياسي والاقتصادي؛ لكثرة ما تحدث عن واجب الجهاد بالمال والنفس كطريق للتقدم. والحقيقة المضمرة أن معيار التقدم في رأي أرسلان يتمثل في النهضة العلمية التي تبنى عليها سائر النهضات السياسية والعسكرية والاقتصادية. ولكن بلوغ هذه النهضة لا يمكن تحقيقه بغير سلوك النهج الذي مضى عليه الأوربيون أنفسهم، وهو «التضحية».

ولكن هل يمكننا أن نلخص أسباب النهضة الأوربية في «التضحية»؟ ألا يمكن القول إن هذه الصفة هي أثر من آثار التقدم والنهضة؟ ثم هل كانت تلك الصفة أمرًا نابعًا من وازع أخلاقي بالمعنى الفلسفي للكلمة؟ ومن أين استقى أرسلان رؤيته تلك؟

لا شك أن أرسلان الذي عاش في أوربا لفترة طويلة ليس بغائب عن الأسباب التاريخية والفكرية والسياسية والاقتصادية التي أسهمت في تشكيل قوة التقدم الحديثة. ولكن أرسلان لا يذهب بعيدًا في التاريخ بحثًا عن أسباب التقدم الأوربي كما طلب منه الشيخ الملاوي أن يفعل؛ بل يكتفي بإلقاء الضوء على بعض الصفات الأخلاقية التي استقرت في الإفرنج، وكانت مظهر قوتهم وتفوقهم العسكري خصوصًا، وعري منها المسلمون، مؤكدًا أنها السر الكامن وراء نهضتهم.

الواقع أن هذه الصفة كانت نتاج تنظيم اجتماعي وسياسي وتربوي يحتل فيه الأفراد جميعًا مكانة متساوية في الحقوق والمسؤوليات، ويحظى كل منهم بنصيبه من الرقي بقدر ما يقدم ويسهم في مجتمعه ودولته. وهي حصيلة تطور طويل في النظريات السياسية والاجتماعية والفكرية التي خضعت لها أوربا خلال قرون عديدة. وإنه لمن قبيل الاختزال القول بأن هذه الصفة الأخلاقية هي التي سببت التقدم الغربي.

ولكن أرسلان، وهو السياسي المحنك، ذو الرؤية الواقعية للأمور، رأى أن واقع الاحتلال الأجنبي الذي تعيشه الشعوب الإسلامية يجعل الحديث عن الإصلاح السياسي والاجتماعي، أو عن التقدم العلمي وضرورة تحصيل المعارف الحديثة ضربًا من العبث. ففي ظل المستعمر لا يمكن لمثل هذه المبادئ الإصلاحية أن تتحقق، ولا لتلك المعارف أن تسهم بأي تقدم أو رفعة للشعوب المستعمَرة.

فكان من المنطقي أن يجعل أرسلان التحررَ من الاستعمار والتحكم الأجنبي شرطًا لابد منه لتحقيق التقدم، ولكن تحقيق ذلك متوقف على إحساس الشعوب المسلمة بمسؤوليتها الأخلاقية عن تحرير بلادها، وذلك بالجهاد بالمال والنفس. فكان لا بد من إعلاء جانب هذه الفضيلة الخلقية على سواها.

في ضوء هذا فقط يمكننا أن نفهم قول أرسلان: «الأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف». ويصبح قوله التالي معقولاً أيضًا: «والحقيقة أن هذه الأمور إنما هي فروع لا أصول، وأنها نتائج لا مقدمات، وأن التضحية أو الجهاد بالمال والنفس هو العِلم الأعلى، الذي يهتف بالعلوم كلها. فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به، دانت لها سائر العلوم والمعارف، ودنت منها جميع القطوف والمجاني».

ج. أسلوب الخطاب: لقد اعتمد أرسلان في رسالته أسلوبًا جداليًّا مسترسلاً، حافلاً بالأمثلة والشواهد التاريخية، مستطردًا إلى مسائل يفرضها سياق الحديث. ومقصوده من استخدام الأسلوب الجدالي، أي: أسلوب السؤال والجواب، أو الفنقلة (إذا قلتم كذا قلنا كذا)، هو إزالة كل الشُّبَه والإشكالات التي قد يُعتَرض بها على الأفكار التي يقررها والآراء التي ينحو إليها.

ويبدو أن أرسلان قد تعمد ذلك فعلاً، إذ كانت غايته الشريحة الواسعة من المسلمين؛ أن يخاطبهم فيشعل فيهم الحمية ويوقظ فيهم الضمير والحس الديني. ولم يكن معنيًّا بمخاطبة المفكرين والفلاسفة المتأملين في سنن التاريخ وقوانين صعود الحضارات وهبوطها.

وعليه يصدق قول الأستاذ أحمد الشرباصي عنها: «إنها أشبه بخطبة طِويلة النفس، فيها من الإثارة والتحميس أكثر مما فيها من البحث والإقناع»[1].

(١) مقدمة حسن تميم على رسالة شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، بيروت: دار الحياة، د.ت. ص ٢١.

خلاصة القول أن شكيب أرسلان لم يقدِّم رؤية كلية أو نظرية متماسكة في التقدم، أو في انهيار الحضارات وصعودها، ولكنه قدَّم خطةً ظرفية رأى أنها كفيلة بتحقيق التقدم، أو إزاحة العقبات من طريقه، إن كتب لها التطبيق.

(٣) أثر الرسالة وتلقيها

تلقى العالم الإسلامي رسالة «لماذا...» بكثير من التقدير والاهتمام، شأن كثير من كتب أرسلان ومقالاته، ناهيك عن كونه يعالج قضية لم تزل الهم القابع في نفوس المسلمين في مختلف بقاع الأرض. وعليه فليس من قبيل المبالغة قول رشيد رضا عن انتشارها:

سارت بها الركبان تطوي نفنفا فنفنفًا وسبسبًا فسبسبا[١]

وقد رحب رجالات الفكر في العالم الإسلامي بهذه الرسالة ولفتوا الأنظار إليها[٢] وحضوا على نشرها وتعميمها، واقترح الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي

---

(١) رشيد رضا، مقدمة الطبع والنشر لرحلة الأمير شكيب الحجازية، المنار (٣١/٧٧٨) ١٣٥٠-١٩٣١م.

(٢) ومن التقريظات اللافتة التي حظيت بها هذه الرسالة، ما قاله حسن البنا فيها عقب صدور الطبعة الثالثة: «الكتاب في بابه حجة دامغة وصفحة مجيدة، وليس لمسلم غناء عنه، ذلك أنه أجاب إجابة شافية جامعة مانعة، وأبان بأنصع برهان وأقوى دليل أسباب نجاح المسلمين الأولين وفشل المسلمين الآخرين، وكشف عن سر تقدم الغربيين واليابانيين». المنار، ٣٥/ ٦٩، ١٩٣٩م.

ومن ذلك ما قاله كامل يوسف عوديتش عضو بعثة البوسنة والهرسك بمصر: «قد بلغت من تعقل الأمور على حقيقتها درجة الكمال في الإتقان والتعميق وبعد النظر وسعة الأفق». أو ما حكاه رفائيل بطي الأديب العراقي في مجلة الرسالة، انظر: ذكرى شكيب أرسلان، ٥٩، ٨٩.

في كلية ندوة العلماء بالهند تعميم نشر الكتاب مصحَّحًا مضبوطًا مشكولاً؛ ليستوفي في مطالعته الخاصة والعامة، وأن يسهم الأغنياء في توزيع نسخه، وأن يدرِّسه المدرسون للطلبة، وأن يخطب به الخطباء مدة طويلة، وأن يترجم إلى اللغات الأخرى[١].

وقد ترجمت الرسالة إلى لغات عدة[٢]، فقد ترجمها الذي كان سببًا في كتابتها وهو الشيخ محمد بسيوني عمران إلى الملاوية وطبعها بعد سنة من نشرها بالعربية تقريبًا، فانتبهت لذلك الحكومة الهولندية، فصادرتها وبحثت عن كل ما يتعلق بها[٣].

وقد ترجمها م. شكور إلى الإنكليزية نقلاً عن الترجمة الملاوية[٤]، وطبعت في لاهور عام (١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م)[٥]. وسبب ترجمتها أن الهنود المسلمين قد لاحظوا تلك الشعلة والحمية الوطنية الإسلامية التي أوقدتها رسالة أرسلان في قلوب الملاويين. فأرادوا أن يوجِّهوا «الرسالة» إلى الهند المسلمة المستيقظة، التي تتوخى السير نحو هدفها المأمول، الاستقلال، تحت قيادة محمد علي جناح، عسى أن تكون لكلمات أرسلان ذات الوقع الملهم والموقِد لشعلة الإسلام في

(١) مقدمة حسن تميم على رسالة شكيب أرسلان، مرجع سابق، ص٢١.
(٢) شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عامًا، مرجع سابق، ص٤٣٦ حاشية.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٩٩.
(٤) التي صدرت في عدد خاص من مجلة «إيمان» تحت عنوان: «أسباب زوال أمة» في إبريل ١٩٣٤م، المجلد الخامس.
(٥) *Our Decline and its Causes*, trans. by M.A. Shakoor (Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, 1944).

قلوبهم عسى أن يقودهم ذلك إلى النصر. ويبدو هذا بوضوح من دعوة الناشر إلى نشر الكتاب بين المسلمين عمومًا، والفقراء منهم خصوصًا بالمجان[١].

ويبدو أن دول الاستعمار قد شعرت بالأثر الخطير الذي يمكن أن تخلّفه هذه الرسالة، ويخبرنا رشيد رضا عن ذلك: «اضطربت بها بعض دول الاستعمار، وزُلزلت زلزالاً شديدًا، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها، وهي أحق بها وأهلها؛ فانفردت بهذه العداوة للإسلام دون من أغروها بها»[٢]، وقابلت فرنسا الرسالة بحماقة فمنعت دخولها إلى الجزائر، وحظرت على الناس قراءتها كأنما هي وباء، وجعلت عقوبة لمن يطالعها[٣]. وسبق أن الحكومة الهولندية في إندونيسيا قد صادرت الترجمة الملاوية للرسالة، وكل ما يتعلق بها، حتى خشي مترجمها بسيوني عمران على نفسه.

ويمكننا تلخيص عوامل انتشارها في الأمور الآتية:

١ـ مؤلفها: مناضل سياسي ذائع الصيت، وكاتب مقروء بكثرة على امتداد العالم الإسلامي.

٢ـ أسلوبها: خطابي سهل مسترسل يناسب الجمهور الواسع من القراء.

(١) المرجع السابق، من مقدمة الناشر والمترجم. viii,x
(٢) رشيد رضا، مقدمة الطبع والنشر لرحلة الأمير شكيب الحجازية، المنار (٣١/ ٧٧٨)، (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).
(٣) شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عامًا، مرجع سابق، ص٥٠٠.

٣ـ نشرها في المنار، المجلة الإصلاحية الشهيرة، المقروءة على امتداد العالم الإسلامي.

٤ـ عنوان الرسالة: المختار ببراعة كان له أثر واسع في جذب الانتباه ودوام الذكر، حتى غدا طرح سؤال التقدم يستدعي إلى الذهن مباشرة رسالة شكيب أرسلان، وكأن السؤال أصبح سؤال شكيب أرسلان نفسه.

٥ـ زمن نشرها: في أوج الامتداد الاستعماري في البلاد الإسلامي، جعل لها قيمة كبيرة، لما تحمله من شحنة معنوية وتحريضية كبيرة.

أ. تلقي الرسالة نقدًا وتقريظًا

لقد كان الشيخ رشيد رضا المتلقي الأول لرسالة شكيب، وأول من علق عليها. وقد قال فيها في أول مكاتبة له إلى شكيب بعد تلقيها: «الرسالة أحسن ما قرأت لكم في الاستدلال والتأثير لا في التأنق في التعبير، وهي من إملاء العلم والإيمان الغالب على الشعور والوجدان، لا من إملاء التخيُّل الشعري في البيان».

ولكن إعجابه هذا لم يمنعه من إبداء ملاحظاته عليها، وهي:

ـ أنها كتبت على عجل.

ـ وأن فيها مباحث دينية كثيرة لا تخلو من عبارات أحب أن أراجعكم فيها، منها ما يتعلق باللفظ، ومنها ما هو استدراك على بعض المسائل[1].

وفي مكاتبة تالية له مع شكيب يورد رشيد رضا ملاحظاته على الرسالة، ويقسمها إلى تصحيحات تتصل ببعض الاستخدامات اللغوية، واستدراكات تتصل ببعض المسائل الدينية والفكرية. فمن استدراكاته:

ـ أنه استحسن أن يزاد في بعض المواضع من شواهد آيات القرآن ما هو قوي جدًّا ولا نظير له في الرسالة، ومنها ما هو أقوى مما أورده شكيب[2]. وقد وافق شكيب على هذه الملاحظة. كما أخذ عليه كثرة الأيات في مواضع أخرى، كموضوع نفي الجبرية.

ـ انتقاده شكيب لإيجازه في مسألة هوية النهضة أهي دينية أم قومية؟

ورأى أن هذه المسألة أولى بالإطالة من غيرها، واعتذر لشكيب بأنها كانت في آخر الرسالة، وأنه خشي التطويل فاختصر فيها القول. ولكنه نبّه شكيب إلى أن هذه المسألة هي أهم مسائل الرسالة، وذكّره أنها كانت موضوع سؤال «ابن المدينة» في جريدة «العهد الجديد»: «إذ قال إن بعض المسلمين يدعون في هذا العصر إلى الترقي من طريق الدين، ويرون أنه يجب عليهم أخذ ما يوافقه من

---

(١) شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا، مرجع سابق، ص ٤٤٣-٤٤٤.
(٢) المرجع السابق، ص٤٥٦.

علوم أوربا ومدنيتها وترك ما يخالفه، وذكر أنها طريقة الشيخ محمد عبده والمنار، وبعضهم يرون أنه يجب أخذ مدنية أوربا بحذافيرها لأنها لا تتجزأ، ووجَّه إليكم السؤال: أي الطريقتين أقوم؟».

ثم طالبه بإعادة النظر في الجواب مذكِّرًا إياه بعدد من النقاط:

١ـ إن الكلام في نهضة المسلمين عن حجج القرآن أقوى مقنع لهم للقيام بها، وأعظم مؤثر في أنفسهم على اختلاف أقوامهم.

٢ـ إن إقناعهم بالنهضة من طريق الدين لا ينافي قيام كل منهم بما يرقي أنفسهم وأوطانهم، وإن كان فيهم من لا يدين بدينهم ممن قد سبقوهم في النهضة الدنيوية.. فكان سبب تخلف المسلمين عنهم جهلهم بأن دينهم يدعوهم إلى أن يكونوا السابقين لغيرهم.

٣ـ إنهم يربحون بالجمع بين النهضتين الدينية والدنيوية بهداية الإسلام بقاء تعاطف شعوبهم وأقوامهم الكثيرة وتوادّهم وتعاونهم، وفي ذلك من القوة الروحية والاجتماعية والسياسية ما لا يخفى، وأعظم شعوبهم ربحًا من هذه الخطة الشعب العربي.

٤ـ ما في الإسلام من الوقاية من مفاسد الحضارة المادية وأخطار النزعات البلشفية وغيرها.

٥ـ الفوائد الأخرى التي ذكرتموها، وهي صيانة الأمة من الإلحاد وإباحة المنكر والفساد[١].

ومن ملاحظات رشيد رضا على الرسالة:

ـ أن شكيب بالغ في تبرئة الديانة النصرانية من التأثير في إضعاف مدنية اليونان والرومان والقضاء عليهما بمثل ما برأ به الديانة الإسلامية. والذي يعتقده رشيد رضا أن ما في الأناجيل من المبالغة في التزهيد في الدنيا، وحرمان الأغنياء من دخول ملكوت السماوات.. كان له تأثير عظيم في القضاء على تلك المدنية، وكذلك سيرة الأحبار من باباوات وبطاركة وفهمهم للدين[٢].

ـ أخذ رشيد رضا على شكيب اللينَ في الرد على من ينكر أنه كان للإسلام حضارة، وأنه اكتفى بأن الإسلام قد أفاد الحضارة الشرقية وأيدها.. والواقع أن الحضارة الشرقية كانت عند ظهور الإسلام في طور الانحلال والزوال، وأن المسلمين لم يلبثوا بعد تمكن ملكهم أن أحيوا العلوم والفنون الميتة ونقَّحوها، وأوجدوا حضارة جديدة إسلامية [٣].

---

(١) لم يأخذ شكيب بهذه الملاحظات، ولم يوسع هذه المسألة، ولا نعلم جواب شكيب أرسلان على هذه الملاحظات أو موقفه منها، إذ لم يعلق عليها حين أوردها في كتابه رشيد رضا. انظر: المرجع السابق، ص٤٥٦-٤٥٧.
(٢) هذه الملاحظة أيضًا مما لم يأخذ به شكيب ولم يعلق عليها، ولكن تعليق رشيد رضا منشور مع الرسالة.
(٣) يبدو أن شكيب قد أخذ بملاحظة صديقه رشيد رضا في هذه المسألة، وغيَّر في عبارته بما يناسب ذلك. انظر: المرجع السابق، ص٤٦٣-٤٦٤.

ب. تعليقات شكيب على الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الثالثة بعد عشر سنوات من الطبعة الأولى، فزودها شكيب أرسلان بعدد من التعليقات والحواشي التي تعكس متابعته للتطورات التي طرأت على العالم الإسلامي خلال تلك السنوات العشر. ففيما يخص مسألة البذل والتضحية بالمال في نصرة المسلمين في فلسطين، لاحظ أرسلان أن حوادث الدهر علّمت المسلمين وأيقظتهم.. ففي السنوات العشر الأخيرة بدؤوا يقتدون باليهود والأوربيين في البذل، وساروا على إثرهم وإن كان لا يزالون في أول الطريق. فقد أحصى شكيب إعانات العرب لإخوانهم في فلسطين بين سنتي ١٩٣٧و١٩٣٨ فزادت على ما كان من قبل، فأثمرت هذه الإعانات ثمرها، وثبتت أقدام العرب في وجه الإنكليز واليهود والخائنين من العرب.

وعن الموقف من الخائنين تحدث شكيب عن تجرؤ المجاهدين أخيرًا على تعذيب الخائنين، إذ لقي كثير من هؤلاء جزاءهم الأوفى.

جـ- المآخذ على أسلوب الرسالة

ذكر الشيخ حسن تميم أن بعض المفكرين انتقد في الرسالة جِرمها الصغير والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم وصياغتها بالأسلوب الصحافي والخطابي العاجل. وهذا أمر لم ينكره، ولكنه أرجعه إلى ظروف إنشاء

الرسالة وكونها جوابًا على سؤال طرح في مجلة المنار، وتحبيرها في مدة وجيزة جدًّا، واعتماد الأمير فيها على الذاكرة وخلاصة التجارب دون المذاكرة والمراجعة.

كما ذكر أن البعض أخذ على الرسالة كثرة إيراد الشواهد القرآنية، وأجاب بأن القرآن هو دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم، واللجوء إلى آياته وتبيان تحذيراته ووصاياه في موضوع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسية والضرورات المنطقية لنجاح الموضوع[١].

والحق أن وصف الشيخ حسن تميم لهذه الرسالة صادق تمامًا، وذلك بقوله: «ومهما قيل في الرسالة فقد كانت بنت ساعتها، وضرورة من ضرورات عصرها، أيقظت الأمة وأزالت الحجب عن أعينها، وحركت العزائم نحو الإصلاح، ودلَّت بصدق على كثير من مواطن الضعف والانحلال»[٢].

وتبقى ملاحظة أخيرة شدَّد عليها فهمي جدعان، بحق، وهي لا تخص شكيب أرسلان وحده، ولكنها تشمل مجمل رجالات الفكر الإصلاحي حتى منتصف القرن العشرين، مثل محمد عبده ورشيد رضا وعبد القادر المغربي والغلاييني، وهي سيطرة التفكير العِلّي الأحادي، وهو التفكير الذي يدير النهضة والتأخر على علة التعلم والتربية والتعليم المدعومة بالأخلاق. والحقيقة أن حدَّة هذا النمط من التعليل لم تنحسر بعض الانحسار إلا بعد الحرب العالمية الثانية،

(١) مقدمة حسن تميم على رسالة شكيب أرسلان، مرجع سابق، ص٢١-٢٢.
(٢) المرجع السابق.

حين لاحظ مفكرون أن التعليل الأحادي لا يكفي، وأنه ينبغي على العكس من ذلك بناء النهضة أو التقدم على أساس تعدد العلل. فبات مركب الشمول هو الذي يسمح لدى هؤلاء الكتاب بتحقيق التقدم. ومن هنا حرصوا على استنباط منظومات شاملة للإسلام، وانتقلوا من إشكالية التقدم القديمة التي كانت تدور في حلقة التحليل العِلِّي أو التسويغ والدفاع أو الإرشاد الخطابي إلى مرحلة التقرير الشمولي المثالي ابتداء من النصوص الدينية نفسها التي تكشف في الآن نفسه عن إرادة تغيير الواقع المتقهقر[١].

ببليوجرافيا شكيب أرسلان

(وتضم ما كتبه من مطبوع ومخطوط، وما ذكر أنه عازم على كتابته، وما كتب عنه من دراسات مخصوصة).

أولاً: كتبه ومنشوراته المطبوعة حسب تسلسلها الزمني

(١) باكورة: مجموعة قصائد شعرية طبعت بالمطبعة الأدبية في بيروت ١٨٨٧م.

(٢) الدرة اليتيمة: حِكَم لعبد الله ابن المقفع طبعت مصححة بقلم الأمير في المطبعة الأدبية ببيروت ١٨٩٣م و١٨٩٧م.

(٣) رواية آخر بني سراج، تأليف فرانسوا رينيه شاتوبريان، عرَّبه شكيب أرسلان وألحق

---

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم، مرجع سابق، ص ٤٦٢.

به ثلاثة أجزاء:

- خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة ـ بقلمه.
- أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، نشره أمير البيان لمؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس بنفسه.
- أثارة تاريخية رسمية ـ أربعة كتب سلطانية أندلسية صادرة من أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة، طبع بمطبعة الأهرام سنة ١٨٩٧م.

(٤) المختار من رسائل أبي إسحاق إبراهيم الصابئ، نشرها أمير البيان وعلق عليها بحواشٍ نافعة في ١٨٩٨م.

(٥) أعمال الوفد السوري الفلسطيني: يضم البيانات والمذكرات والمطالب التي قدمها أمير البيان وشاركه في وضعها إحسان الجابري وميشال لطف الله وسليمان كنعان، طبع بالمطبعة السلفية في ١٩٢٣م.

(٦) حاضر العالم الإسلامي، تأليف الكاتب الأميركي لوثروب ستودارد، ترجمه إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض، وقدم له وعلق عليه شكيب أرسلان، فجاءت تعليقاته وحواشيه أربعة أضعاف الكتاب الأصلي، واشتهر الذيل والحاشية حتى أصبح الأصل يعرف بها لدى قراء العربية، طبعته المطبعة السلفية في ١٩٢٥م.

(٧) أناتول فرانس في مباذله، تأليف جان بروسون، مع خلاصة كتاب «محادثات مع أناتول فرانس» لنقولا سيغور، وزبدة أقوال الصحف الفرنسية يوم وفاته، ترجمها وقدم لها وأضاف إليها تعليقات في الأدب والفلسفة والتراجم، طبع بالمطبعة العصرية في ١٩٢٦م.

(٨) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟، طبع في مطبعة المنار سنة ١٩٣٠م.

(٩) الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، كتاب تحدث فيه الأمير شكيب عن رحلته لأداء فريضة الحج، طبع في مطبعة المنار سنة ١٩٣١م.

(١٠) محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، نشره أمير البيان وقدم له وعلق عليه دون أن يذكر اسم مؤلفه، وهو من تأليف الشهاب أبي العباس أحمد ابن محمد بن أبي بكر الشهير بابن زيد الموصلي الحنبلي المتوفى بدمشق سنة ٨٧٠هـ. طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبي في ١٩٣٣م.

(١١) تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط. وهو أول تأليف بالعربية في معناه وموضوعه، طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبي وتاريخ مقدمته سنة ١٣٥٢هـ .

(١٢) روض الشقيق في الجزل الرقيق، وهو ديوان نسيب أرسلان، شقيق شكيب الأمير، جمعه وعلق عليه وصدره بترجمة للشاعر، وذيله بنسب العائلة الأرسلانية، طبع في مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٥م.

(١٣) ديوان الأمير شكيب أرسلان، طبع بمطبعة المنار سنة ١٩٣٦م، وقدم له خليل مطران.

(١٤) شوقي أو صداقة أربعين سنة، ذكريات الأمير عن أحمد شوقي أمير الشعراء، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٣٦م.

(١٥) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دراسة أندلسية تتناول الجغرافية والتاريخ والتراجم والعلوم والفنون والآداب. صدر منه ثلاثة أجزاء: طبع أول

جزء منه بمطبعة الحلبي في ١٩٣٦م، والثاني في ١٩٣٩م، والثالث في ١٩٤٧م، وهو في الأصل مرسوم على ثمانية أجزاء، ولم يُعرف بعدُ ما إذا كانت تتمته ما زالت موجودة أم أنها فقدت.

(١٦) السيد رشيد رضا (أو إخاء أربعين سنة)، وفيه ترجمة وافية برفيق دربه الفكري، وسجل لمعظم مراسلات رشيد رضا إلى شكيب، طبع بمطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٧م.

(١٧) النهضة العربية في العصر الحاضر، طبع في مطبعة دار النشر سنة ١٩٣٧م، وهو كتيب صغير أصله محاضرة ألقيت في دار المجمع العلمي العربي.

(١٨) عروة الاتحاد بين أهل الجهاد، مجموعة مقالات نشرت في صحف مختلفة، جمعتها إدارة جريدة «العالم العربي» التي كانت تصدر في بوينس إيرس بالأرجنتين، قدم له الدكتور تقي الدين الهلالي، وصدر منه الجزء الأول سنة ١٩٤١م.

(١٩) تكملة تاريخ ابن خلدون، تعليقات للأمير شكيب على كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر» لابن خلدون في الطبعة المنقحة التي قام بها الأستاذان محمد علال الفاسي الفهري وعبد العزيز بن إدريس من المغرب، صدر تعليق الأمير على المجلد الأول باسم ملحق للجزء الأول، وفيه تفصيل لتاريخ الصقالبة والترك والدولة العثمانية إلى سنة ١٩١٤م.

(٢٠) سيرة ذاتية، كتبها شكيب أرسلان في سنة ١٩٣٢م، ونشرتها دار الطليعة ببيروت سنة ١٩٦٩م.

(٢١) الشعر الجاهلي، ويتضمن تعليقاته ونقده على كتاب طه حسين، دمشق، دار

الثقافة، ١٩٨٠م.

(٢٢) القول الفصل في رد العامي إلى الأصل، نشر في بيروت بالدار التقدمية، بتحقيق وتقديم الأستاذ محمد الباشا عام ١٩٨٩م.

(٢٣) تاريخ الدولة العربية، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠٠٦م. ويقع في ٨٧٦ صفحة.

(٢٤) تاريخ الدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه وعلق عليه حسن السماحي سويدان، دمشق، دار ابن كثير، ٢٠٠١م، ويقع في ٨٢٢ صفحة.

(٢٥) التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي؟ تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب مئة مشروع، علق عليه وهذبه وقدم له محمد العبدة، بيروت، دار ابن حزم، ١٩٩٥م.

ثانيًا : المجلات

(١) (La Nation Arabe) الأمة العربية، مجلة دورية بدأ إصدارها في ١٩٣٠م بجنيف بالفرنسية، دافع فيها عن قضايا العرب والمسلمين، واستمرت حتى ١٩٣٨م حين منعتها الحكومة السويسرية، ثم عاودت الصدور خلال الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٣م بدعم من مكتب الخارجية الألمانية.

ثالثًا: رسائله المطبوعة [1]

(١) إلى العرب بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية.

---

(١) قدم شكيب أرسلان لكتب كثيرة، مثل: «الجملة القرآنية» لمصطفى صادق الرافعي، و«قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث» لجمال الدين القاسمي، وهذا يدل على صلته الوطيدة بمفكري عصره وأعلامه وتقديرهم له.

(٢) لائحتي إلى المسيو جوفنيل. وهي رد على الافتراءات التي وجهها إليه بعض زملائه في النضال السياسي.

(٣) الوحدة العربية: رسالة صغيرة.

(٤) رسالة البلاشفة.

(٥) رحلة ألمانية.

(٦) رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق.

رابعًا: المخطوطات

(١) اللهجات العربية.

(٢) بيوتات العرب في لبنان.

(٣) البيان عما شهدت بالعيان.

(٤) تاريخ بلاد الجزائر.

(٥) ما لم يرد في متون اللغة.

(٦) بحث عن طرابلس وبرقة.

(٧) الحلة السنية في الرحلة البوسنية.

(٨) اختلاف العلم والدين (ترجمة).

(٩) مدنية العرب.

(١٠) الجيش المعبا من تاريخ أوربا.

(١١) قضيتنا مع سمو الخديوي.

(١٢) تاريخ لبنان.

(١٣) التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف السنوسي.

خامسًا: كتب مقترحة أو كانت في النية

(١) الفوضى الإسلامية وما جنته على المسلمين والوحدة الإسلامية وما جنته للمسلمين.

(٢) قطف العسلوج في وصف الماء المثلوج بجوار البيت المحجوج.

(٣) الحجر الكريم فيمن ولد من العلماء بتريم.

(٤) الديانة في ألمانية.

(٥) سيرة صلاح الدين الأيوبي.

(٦) العقد الثمين فيمن من العلماء تجاوز الثمانين.

(٧) الإسلام في المستعمرات الأوربية.

(٨) الحرب العامة الأولى.

(٩) دليل العالم الإسلامي.

سادسًا: ما كُتِب عن شكيب أرسلان

أ. الكتب العربية

(١) محمد علي الطاهر، ذكرى الأمير شكيب أرسلان، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٤٧م. (سجل فيه محمد علي الطاهر- صديق أرسلان- الاحتفال التأبيني الذي أقيم بدار الأوبرا الملكية في القاهرة في ٧ شباط / فبراير سنة ١٩٤٧م، وجمع فيه ما ألقي في الحفلة من خطب وقصائد، وكلمات التأبين والرثاء، كما جمع كثيرًا مما كتب عنه في صفحات الجرائد عقب وفاته).

(٢) عدد خاص من مجلة العروبة ١٩٤٨م.

(٣) عدد خاص من مجلة الأديب ١٩٤٧م.

(٤) سامي الدهان، محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٨م.

(٥) سامي الدهان، الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠م.

(٦) أحمد الشرباصي، أمير البيان شكيب أرسلان، القاهرة، دار الكتاب العربي، جزءان ط ١، ١٩٦٣م.

(٧) أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، سلسلة أعلام العرب رقم (٢) القاهرة، مطبعة مصر، ط١، ١٩٦٣م.

(٨) أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية، سلسلة مذاهب وشخصيات، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٣م.

(٩) أحمد الشرباصي، أدب أمير البيان (سلسلة مذاهب وشخصيات)، القاهرة، الدار القومية، ط١، ١٩٦٣م.

(١٠) أحمد الشرباصي، رسائل وبحوث أمير البيان شكيب أرسلان، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ج٢، ١٩٦٣م.

(١١) الطيب بنونة، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة، مطبعة دار أمل، ط١، ١٩٨٠م.

(١٢) محمد بن عزوز الحكيم، وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب، تطوان، ١٩٨٠م.

(١٣) محمد شفيق شيا، شكيب أرسلان: مقدمات الفكر السياسي، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣م.

(١٤) زيد عبد اللطيف الحجار، الأمير شكيب أرسلان والجامعة الإسلامية، بيروت، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٨٨م.

(١٥) سعود المولى، شكيب أرسلان: بنو معروف أهل العروبة والإسلام، بيروت، دار العودة.

(١٦) نجيب البعيني، من أمير البيان شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر، بيروت، دار المناهل، ١٩٩٨م.

(١٧) نجيب البعيني، أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه، بيروت، الدار الجامعية، ١٩٩٢م.

(١٨) نجيب البعيني، من آثار أمير البيان شكيب أرسلان في الشعر والنثر، بيروت، الدار الجامعية.

(١٩) جورج نخل، شكيب أرسلان، (سلسلة أعلام من لبنان) طرابلس، دار الشمال، ١٩٩٦م.

(٢٠) جورج نخل، ذكريات الأمير شكيب أرسلان: عن الحرب الكونية الأولى وعن المجاعة في سوريا ولبنان، بيروت، نوفل، ٢٠٠١م.

(٢١) سمير أبو حمدان، شكيب أرسلان، بيروت، الشركة العالمية للكتاب.

(٢٢) ظاهر محمد صكر الحسناوي، شكيب أرسلان ودوره السياسي في حركة النهضة العربية الحديثة ١٨٦٩-١٩٤٦، بيروت، منشورات رياض الريس، ٢٠٠٢م.

(٢٣) يسري محمد خميس البنا، الآراء الكلامية والفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م.

ب. الكتب والدراسات الأجنبية

تعد البحوث والدراسات الغربية عن شكيب أرسلان قليلة جدًّا، بالنظر للحركة السياسية الواسعة التي اضطلع بها في أوربا لأكثر من ثلاثين عامًا. حتى إن مجلته (La Nation Arabe) كانت تقرأ بكثرة في أوربا، سواء من محبيه أو معارضيه.

ويفسر كليفلاند- في دراسته المهمة عن شكيب- أنه نتيجة هزيمة الوحدة الإسلامية التي كان أرسلان يدعو إليها على يد القومية العلمانية، الأمر الذي زهّد الباحثين في دراسته. يضاف إلى ذلك امتناع عائلة أرسلان عن التعاون مع

الباحثين أو السماح لهم بالاطلاع على أوراقه الشخصية، التي كان يُظن أن لها أهمية كبيرة[1].

(1) Bessis, Juliette. *Chekib Arslan et les mouvements nationalistes au Maghreb.* Revue historique, juin1978, No. 526.

(2) E. Lévi-Provençal. *L'Emir Shakib Arslan (1869-1946),* Cahiers de l'Orient Contemporain, No. 9-10, 1948.

(3) Fleury, Antoine, Le mouvement national arabe à Genève durant l' entre-deux-guerres. Relations internationales, No. 19, 1979.

(4) Cleveland, William L. *Islam against the West:* Shakib Arslan and the *Campaign for Islamic Nationalism.* Austin: University of Texas Press (Modern Middle East Series, No.10), 1985.[2]

---

(١) M. Kramer. Book Review, Middle Eastern Studies, Vol.23, No.4 (October 1987), pp. 529-33.
ولكن كليفلاند بذل جهدًا كبيرًا في دراسته عن أرسلان، فرجع إلى ملفات المخابرات السويسرية خصوصًا، والإنكليزية والفرنسية، كما رجع إلى الأرشيف الوطني الألماني والإيطالي بحثًا عن الصلات التي كانت تربط أرسلان بحكومتي البلدين النازية والفاشية، وإلى رسائل أرسلان إلى الخديوي عباس حلمي الثاني الـ ٣٠٠ المحفوظة في مكتبة جامعة ديورهام.

(٢) تعد دراسة كليفلاند من أهم ما كتب عن شكيب أرسلان، وإن كان عنوانها مضللاً كما ذكر خدوري في مراجعته لكتابه، وهذه أهم المراجعات التي كتبت عنه:

A. Hourani. Review of Islam against the West:.., Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol.50, No.3 (1987), pp.555–6.

M. Kramer. Book Review, Middle Eastern Studies, Vol.23, No.4 (October 1987), pp.529–33.

M. Khadduri, Review of Islam against the West: .., International Journal of Middle East Studies, Vol.20, No.1 (February 1988), pp.133–4.

لماذا تأخر المسلمون

ولماذا تقدم غيرهم

﴿ من قلم ﴾

الأمير شكيب أرسلان

رئيس المجمع العلمي العربي

في سورية

عليه حواش من قلم فقيد الإسلام العلامة السيد محمد رشيد رضا

وقد أضيفت زيادات على هذه الطبعة الثالثة من قلم المؤلف

(وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة سنة ١٣٤٨)

« الطبعة الثالثة في سنة ١٣٥٨ »

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

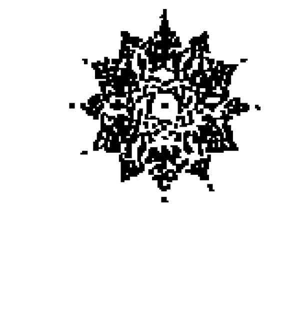
صفحة الغلاف الداخلي لآخر طبعة للكتاب صدرت في حياة المؤلف

لماذا تَأَخَّر المسلمون؟
ولماذا تقدَّم غيرُهم؟

تأليف

الأمير شَكِيب أرسلان

صدر لأول مرة عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م) في ثلاث حلقات متتالية بمجلة المنار (رجب وشعبان ورمضان ١٣٤٩هـ)، ثم توالت طبعاته منفردًا.



مقدمة على هذه الرسالة لفقيد الإسلام الحجة السيد رشيد رضا - قدس الله روحه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد/ ١١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال/ ٥٣].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر/ ٥١].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات/ ١٥].

كتب إليّ تلميذي المرشد الشيخ «محمد بسيوني عمران» إمام مهراجا جزيرة سمبس بورنيو «جاوة» كتابًا يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيّال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر، وأسباب قوة الإفرنج واليابان، وعزّتهم بالملك والسيادة، والقوة والثروة.

وقال في كتاب آخر: إنه قرأ ما كتبناه في «المنار»، و«تفسيره» من بيان الأسباب في الأمرين، وما كتبه الأستاذ الإمام في مقالات «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» في الموضوع، وإنما غرضه أن يكتب في ذلك أمير البيان بقلمه المؤثِّر المعبِّر عن معارفه الواسعة، وآرائه الناضجة، لتجديد التأثير في أنفُس المسلمين، بما يناسب حالهم الآن، لتنبيه غافلهم، وتعليم جاهلهم، وكبت خاملهم، وتنشيط عاملهم.

وبنى الاقتراح على الأسئلة الآتية، التي صارت مثار شُبهة على الدين عند غير علمائه، فهو يعلم مما سمعه من دروسنا في «مدرسة الدعوة والإرشاد»، ومما كتبناه مرارًا في «المنار» و«التفسير» أن كتاب الله تعالى حجة على أدعياء الإسلام والإيمان، وليسوا هم حجة عليه.

اقترحت هذا الاقتراح لحمل أخي ووليي الأمير شكيب على كتابة شيء مثل هذا للمنار، وأنا الذي أنصح له دائمًا بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه، لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب، وللأصدقاء وغيرهم، فأرسلت إليه كتاب «الشيخ محمد بسيوني» عُقْب وصوله إليّ، فأرجأ الجواب عنه لكثرة الشواغل، إلى أن عاد من رحلته إلى إسبانية، وقد أثَّرت في نفسه مشاهد حضارة قومنا العرب في الأندلس والمغرب الأقصى، وشاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير

البربر في المغرب، تمهيدًا لتنصير عرب إفريقية المرزوئين[1] باستعبادها لهم، كما فعلت إسبانية في سلفهم في الأندلس - فكتب الجواب منفعلاً بهذه المؤثّرات، فكان آية من آيات بلاغته، وحجّة من حُجَج حكمته، لعلَّها أنفع ما تفجَّر من ينبوع غيرته، وانبجس من مَعِين خبرته، فسال من أنبوب يَرَاعَته[2]، جزاه الله خير ما جَزَى المجاهدين الصادقين.

محمد رشيد رضا

(١) المرزوئين: المصابين بالرزايا والمصائب. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يُستعمل الرمز (م) لاحقًا للإشارة إلى ذلك).
(٢) يَرَاعَته: قلمه. (م).

كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران

حضرة مولاي الأستاذ المُصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب «المنار» نفعني الله والمسلمين بوجوده العزيز، آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعدُ؛

فإن مَن قرأ ما كتبه في «المنار» وفي الجرائد العربية العلاَّمة السياسي أمير البيان «الأمير شكيب أرسلان» من مقالاته الرنانة المختلفة المواضيع، عرف أنه من أكبر كُتّاب المسلمين المدافعين عن الإسلام، وأنه أقوى ضلْع للمنار وصاحبه في خدمة الإسلام والمسلمين، وإني أرجو من الله تعالى أن يطيل بقاءهما الشريف في خير وعافية، كما أرجو من مولاي الأستاذ صاحب المنار أن يطلب من هذا الأمير الكاتب الكبير أن يتفضّل عليَّ بالجواب عن أسئلتي الآتية، وهي:

(١) ما أسباب ما صار إليه المسلمون - ولاسيّما نحن مسلمو جاوة وملايو - من الضعف والانحطاط في الأمور الدنيوية والدينية معًا، وصرنا أذلاء، لا حول لنا ولا قوّة، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/ ٨].

فأين عزَّة المؤمنين الآن؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي أنه عزيز، وإن كان ذليلاً مُهانًا، ليس عنده شيء من أسباب العزَّة، إلا لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/ ٨].

(٢) ما الأسباب التي ارتقى بها الأوربيون والأمريكانيون واليابانيون ارتقاء هائلاً؟وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء، إذا اتَّبعوهم في أسبابه، مع المحافظة على دينهم (الإسلام) أم لا؟

هذا هو المرجوّ من فضل الأمير أن يبسط الجواب في «المنار» عن هذه الأسئلة، وله وللأستاذ صاحب «المنار» من الله الأجر الجزيل.

محمد بسيوني عمران

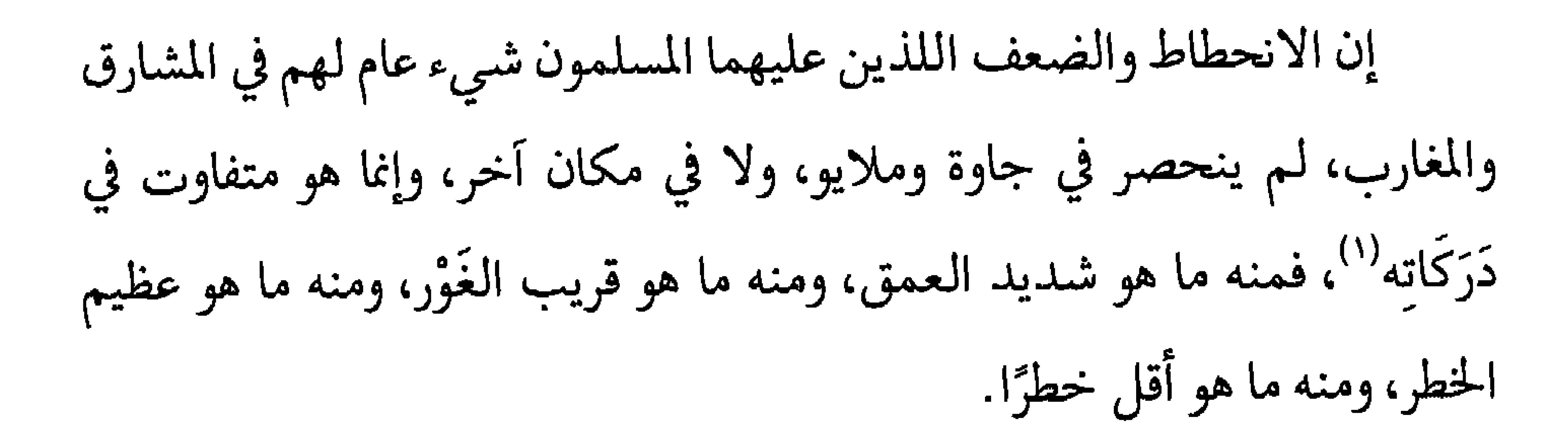
سنبس بورنيو الغربية

في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨هـ

هذا نص كتاب السائل، ويتلوه جواب الأمير. وقد وضعنا له بعض العناوين، لأنها كمحطَّات الطريق للسالكين، وعلَّقْنا عليه قليلاً من الحواشي المفيدة للقارئين، كما فعلنا ذلك في كتاب «الإسلام والنصرانية» لشيخنا الأستاذ الإمام - رحمه الله[1].

(١) الحواشي التي بقلم الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - سنشير إليها بـ (رضا)، والحواشي التي أضافها شكيب أرسلان - رحمه الله، سنشير إليها بـ (شكيب). (م).

جواب الأمير شكيب أرسلان



إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام لهم في المشارق والمغارب، لم ينحصر في جاوة وملايو، ولا في مكان آخر، وإنما هو متفاوت في دَرَكَاتِه[1]، فمنه ما هو شديد العمق، ومنه ما هو قريب الغَوْر، ومنه ما هو عظيم الخطر، ومنه ما هو أقل خطرًا.

وبالإجمال حالة المسلمين الحاضرة، ولاسيّما مسلمي القرن الرابع عشر للهجرة، أو العشرين للمسيح، لا تُرضي أشد الناس تحمُّسًا بالإسلام، وفرحًا بحزبه، فضلاً عن غير الأحمسي من أهله.

[تشابه الشعوب الإسلامية في الضعف][2]

إن حالتهم الحاضرة لا تُرضي، لا من جهة الدِّين، ولا من جهة الدُّنيا، ولا من جهة المادّة، ولا من المعنى. وإنك لتجد المسلمين في البلاد التي يُساكِنُهم فيها

---

(١) دَرَكَات: منازل سفلى، جمع «دركة». (م).

(٢) العناوين التي بين القوسين المعقوفين موجودة في الطبعة الأصلية في فهرس المحتويات فقط. (م).

غيرهم متأخّرين عن هؤلاء الأغيار، لا يُسامِتُونهم[١] في شيء إلا ما ندر، ولم أعلم من المسلمين مَن ساكنهم أمم أخرى في هذا العصر، ولم يكونوا متأخّرين عنهم إلا بعض أقوام منهم، وذلك كمسلمي «بوسنة» مثلاً، فإنهم ليسوا في سويٍّ ماديٍّ ولا معنويٍّ أدنى مِن سويِّ النصارى الكاثوليكيين، أو النصارى الأرثوذكسيين، الذين يُحيطون بهم، بل هم أعلى مستوى من الفريقين[٢].

وككثير من مسلمي روسية، الذين ليس المسيحيون الذين يُجاورونهم أرقى منهم.

ولقد كان المسلمون في أذربيجان قبل الحرب أرقى من الطوائف المسيحية التي تُساكنهم.

ولا خلاف في أن مسلمي الصين إجمالاً على تأخُّرهم هُم أرقى من الصينيين البوذيين، هذا إذا كانت النسبة بين الفريقين باقية كما كانت قبل الحرب العامة.

---

(١) لا يُسَامِتُونهم: لا يوازونهم. (م).

(٢) كانوا أعلى مستوى من الكاثوليكيين والأرثوذكسيين من الجهة المادية بسبب أن (٨٠) في المئة من أراضي «البوسنة» كانت مِلْكًا للمسلمين، وكان الفلاحون فيها جميعًا من الصربيين، فمنذ بضع عشرة سنة، سنَّتْ حكومة بلغراد قانونًا صدَّقه مجلس نوّابها، نزعت بموجبه هذه الأملاك من أيدي مالكيها المسلمين، وسلّمتها إلى الفلاحين الصربيين، غير معوَّضةٍ على المسلمين إلا ببدل بخس، فأصبحوا لا يملكون في البوسنة إلا (٢٥) في المئة من الأراضي، فسقطت أهميتهم المادية من ذلك الوقت. أمّا حالتهم الأدبية فَمُرْضِيةٌ إلى اليوم، لا يُقال إنّها دنيا بالقياس إلى جيرانهم. (شكيب).

وفيما عدا هذه الأماكن نجد تأخُّر المسلمين عن مسامتة جيرانهم عامًّا، مع تفاوت في دركات التأخُّر.

ويُقالُ: إن العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الأجناس التي تُساكنهم، حتى من الإنكليز أنفسهم بالنسبة إلى العَدَد، ولا أعلم مبلغ هذا الخبر من الصِّحَّة، ولكنه على فرض صحَّته ليس بشيء يُقَدِّم أو يؤخِّر في ميزانية المسلمين العامّة.

ولا إنكار أن في العالم الإسلامي حركة شديدةً، ومخاضًا عظيمًا شاملاً للأمور المادية والمعنوية، ويقظة جديرة بالإعجاب، قد انتبه لها الأوربيون، وقدَّروها قَدْرَها، ومنهم مَن هو متوجِّس خِيفة مغبَّتها[1]، لا يخفى هذا الخوف من تضاعيف كتاباتهم، إلا أن هذه الحركة إلى الأمام لم تصل بالمسلمين حتى اليوم إلى درجة يساوون بها أُمَّة من الأمم الأوربية أو الأمريكية أو اليابان.

فبعد أن تقرَّر هذا، وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التقهقُر في العالم الإسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصَّدْر المقدّم، وهو السيّد المرهوب المُطاع بين الأمم شرقًا وغربًا، فقبل أن نبحث في أسباب الارتقاء نقول:

---

(١) مَغَبَّتها: عاقِبَتها. (م).

أسباب ارتقاء المسلمين الماضي ترجع كلُّها إلى الإسلام

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مُجملها إلى الديانة الإسلامية، التي كانت ظهرت جديدًا في الجزيرة العربية، فَدَانَ بها قبائل العرب، وتحوَّلوا بهدايتها من الفُرقة إلى الوَحْدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدَّلوا بأرواحهم الأُولى أرواحًا جديدة، صيَّرتهم إلى ما صاروا إليه من عِز ومَنَعة، ومجد وعِرْفان وثروة، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن، ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان، وفي خلافة علي رضي الله عنهما، لكانوا أكملوا فتح العالم، ولم يقف في وجهِهم واقف.

على أن تلك الفتوحات التي فتحوها في نصف قرن أو ثلثي قرن - برغم الحروب التي تسبَّبت بها مشاقَّة[١] معاوية لعليّ، والحروب التي وقعت بين بني أمية وابن الزبير - قد أدهشت عقول العُقلاء والمؤرّخين والمفكّرين، وحيَّرت الفاتحين الكبار، وأذهلت «نابليون بونابرت» أعظمهم، وله تصريح في ذلك نقله «لاكاس» الذي رافقه إلى جزيرة «سانتة هيلانة» وغيره من المقيّدين لحوادث نابليون، المتتبّعين لأقواله، فقد ثبت ثبوتًا قطعيًّا من أقوال ذلك الفاتح العظيم وسيرته أيام كان بمصر، أنه كان مُعْجَبًا بمحمّد ﷺ وعُمر ﷺ، وبكثير من أبطال الإسلام، وأن نفسه حدَّثته لمّا كان بمصر أن يتّخذ الإسلام دينًا له.

(١) مشاقّة: مخالفة ومعاداة. (م).

فالقرآن الكريم قد أنشأ إذًا العرب نشأة مستأنَفَةً، وخلقَهم خلقًا جديدًا، وأخرجهم مِن جزيرتهم، والسيف في إحدى اليدين، والكتاب في الأخرى، يفتحون ويسودون، ويتمكّنون في الأرض بطولها والعرض.

ولا عبرة بما يُقال في شأن العرب قبل الإسلام، وما يُروى من فتوحات لهم ومدنيات أثيلةٍ[١]، وما ينوَّه به من أخلاق عظام في الجاهلية، فهذه - ولا جدال - قد كانت ولا تزال آثارُها ظاهرةً، ولا شك في مدنيّة العرب القديمة، وأنها من أقدم مدنيّات العالم على الإطلاق.

وممّا يرجّح أن الكتابة قد بدأت عندهم، وأنه لو فُرض أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا الكتابة في العالم، فالفينيقيون في الحقيقة أُمّة سامية عربية، ولكن دائرة تلك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها.

وقد أتى على العرب حين من الدَّهْر سادهم الغرباء في أرضهم، وأذلّهم الأجانب في عُقْر دارهم، كالفرس في اليمن وعمان والحيرة، وكالحبشة في اليمن، وكالرّوم في أطراف الحجاز ومشارف الشّام.

والحقيقة أنهم لم يستقلّوا استقلالاً حقيقيًّا واسعًا إلا بالإسلام، ولم تعرفهم الأمم البعيدة، وتخنع لهم الممالك العظام، والقياصرة والأكاسرة، ويتحدَّث

---

(١) أَثِيلَة: عريقة الأصول وذات مكانة. (م).

بِصَوْلتهم[١] الناس، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي أحلَّهم في الصف الأوّل من الأمم الفاتحة إلا بمحمد ﷺ.

فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا، وسادوا وشادوا، وبلغوا هذه المبالغ كلَّها من المجد والرُّقيّ، يجب علينا أَن نبحث عنه وننشده، ونُحْفِي[٢] المسألة، ونمعن في النِّشْدَان[٣].

أهو باق في العرب، وهم قد تأخَّروا برغم وجوده، وتأخَّر معهم تلاميذُهم الذين هم سائر المسلمين؟

أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم، ولم يبق مِن الإيمان إلا اسمُه، ومِن الإسلام إلا رسمُه، ومن القرآن إلا الترنم به، دون العمل بأوامره ونواهيه، إلى غير ذلك مما كان في صَدْر المِلَّة وعُنْجُهيّة[٤] الشريعة؟

فقْد المسلمين السبب الذي ساد به سَلَفُهم

إذا فحصنا عن ذلك وجدْنا أن السبب الذي به استقام هذا الأمر قد أصبح مفقودًا بلا نزاع، وإن كان بقي منه شيء فكباقي الوشم في ظاهر

(١) بِصَوْلَتِهم: بسطوتهم ونفوذهم. (م).
(٢) نُحفي: نُلحّ ونُبالغ. (م).
(٣) النِّشْدَان: الطّلب والسؤال. (م).
(٤) عُنْجُهيَّة: عَظَمة. (م).

اليد، فلو كان الله وعد المؤمنين بالعزّة بمجرّد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول: أين عزَّة المؤمنين؟ من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون/ ٨].

ولو كان الله قد قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/ ٤٧]. بمعنى أنه ينصرهم بدون أدنى مزيّة فيهم سوى أنهم يُعلنون كونهم مسلمين، لكان ثمة مَحل للتَّعجُّب مِن هذا الخُذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر.

ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مُخْلِف وَعْدَه، والقرآن لم يتغيَّر، وإنما المسلمون هم الذين تغيَّروا، والله تعالى أنذر بهذا فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد/ ١١].

فلمّا كان المسلمون قد غيَّروا ما بأنفسِهم، كان مِن العجب أن لا يُغيِّر الله ما بهم، وأن لا يبدلهم الذُّل والضَّعَة، من ذلك العز وتلك الرفعة، بل كان ذلك يُعَد منافيًا للعدل الإلهيّ، والله – عزَّ وجلَّ – هو العدل المحض.

كيف ترى في أمة ينصرُها الله بدون عمل، ويفيض عليها الخيرات التي كان يفيضها على آبائها، وهي قد قعدت عن جميع العزائم، التي قد كان يقوم بها آباؤها؟ وذلك يكون أيضًا مخالفًا للحكمة الإلهية، والله هو العزيز الحكيم.

ما قولُك في عزَّة دون استحقاق، وفي غَلَّة دون حرث ولا زرع، وفي فوز دون سعي ولا كسب، وفي تأييد دون أدنى سبب يوجب التأييد!

لا جرم أن هذا مما يُغري الناس بالكسل، ويحول بينهم وبين العمل، بل مّما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها، وهو ما يستوي به الحق والباطل، والضَّار والنافع، والموجب والسَّالب، وحاشا لله أن يفعل ذلك.

ولو أيَّد الله مخلوقًا بدون عمل لأيَّد مِن دون عمل محمّدًا رسوله ﷺ، ولم يُخرجه إلى القتال والنزال والنضال، واتّباع سُنَن الكون الطبيعيّة للوصول إلى الغاية.

وتصوّر أمة لله عندَها مئة، وهي تؤدّي من المئة خمسة فقط، أتعد نفسَها قد أدَّت ما عليها، وهي تطمَع في أن يكافِئَها الله، كما كان يُكافئ أجدادَها، الذين كانوا يؤدّون المئة مئةً، وإن قصَّروا عن المئة أدُّوا بالأقل تسعين أو ثمانين منها؟ كلا هذا مخالف لما وعد الله على رسله، ومخالف للعقل والمنطق، ومخالف لحكمة التشريع، وليس هذا هو الشرط الذي شرطه الله على المؤمنين، وليس هذا هو البيع الذي يستبشر به المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة/ ١١١].

فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذي في كتاب الله؟!

وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة، وكثيرًا ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه؟! وكان فارسهم يَكُرُّ[١] وهو يقولُ: «إني لأشم ريح الجنة» ثم لا يزال يكرّ، ويخوض غمرات الحرب، حتى إذا استشهد قال: «هذا يوم الفرح»، وإذا فاتته الشهادة برغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزينًا كئيبًا.

المقابلة بين حالَي المسلمين والإفرنج اليوم

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التي كانت عند آبائهم، وإنما تخلّق بها أعداء الإسلام، الذين لم يوصهم كتابهم بها، فتجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقًا، وتتلقى الأسنة والحراب عناقًا، ولقد كان مبلغ مُفاداتهم[٢] بالنفائس، وتضحيتهم بالنفوس في الحرب العامّة فوق تصوُّر عقول البشر، إنما يعلم ذلك كل أحد، فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل، والفرنسيون فقدوا مليونًا وأربعمئة ألف قتيل، والإنكليز فقدوا ستمئة ألف قتيل، والطليان فقدوا أربعمئة وستين ألف قتيل، والروس هلك منهم ما يفوق الإحصاء، وهلم جَرًّا.

هذا من جهة النفوس، وإنكلترة بذلت سبعة مليارات من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيه)، وفرنسة بذلت نحو مليارين، وألمانية أنفقت ثلاثة،

---

(١) يَكُرُّ: يُعاود الهجوم. (م).

(٢) مفاداتهم: تضحيتهم. (م).

وإيطالية أنفقت خمسمئة مليون، وروسية أنفقت ما أوقع فيها المجاعة، التي آلت إلى الثورة، ثم إلى البلشفة، وهلم جَرًّا.

فليقُل لي قائل: أيّة أمة مسلمة اليوم تُقْدِم على ما أقدم عليه هؤلاء النصارى مِن بيع النفوس وإنفاق الأموال بدون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم، حتى نعجب نحن لماذا آتاهم الله هذه النعمة والعظمة والثروة، وحرم المسلمين اليوم أقل جزء منها؟

وقد يُقال: إن المسلمين فقراء، ليس عندهم هذه الأموال لينفقوا هذا الإنفاق كلّه.

فنجيب: بأننا نوزِّع هذه النفقات على الأوربيين بنسبة رأس المال، ولا نكلِّف المسلمين إلا الإنفاق مثل الأوربيين على هذه النسبة.

فهل تسخو الأمم الإسلامية الحاضرة بما تسخو الأمم الأوربية، التي منها من قد أنفقت في الحرب العامة أكثر من نصف ثروتها؟

الجواب: لا، ليس في المسلمين اليوم من يفعل ذلك، لا أفرادًا ولا أقوامًا، وندر في المسلمين من يُنفق الزكاة الشرعيّة.

وقد يُقالُ: إن الأمّة التركية -وهي أمّة مسلمة- قد أنفقت كل ما تقدر عليه في حرب اليونان، ولم تقصّر عن شَأْو[1] الأوربيين في المفاداة بالأنفس والنفائس.

(١) شَأْو: سَبْق. (م).

والجواب: نعم، قد كان ذلك، ومن التُّرك مَن بذل ثُلُث ثروته، ومنهم من بذل نصف ثروته في هذه الحرب، ولكنهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمة من الله وفازوا، وحرَّروا أنفسهم واستقلّوا، وارتفعوا بعد أن كانوا هَوَوْا، وعَزُّوا بعد أن كانوا ذَلّوا.

إذًا، الأمم الإسلامية إذا ائتمرَت في المفاداة بما أمرها به كتابُها، كما كان يفعل آباؤها، أو اقتدت على الأقل بما هو دأب الأوربيين اليوم؛ من بذل النفوس والنفائس في سبيل حفظ بَيْضَتها[1]، وذَوْد[2] المعتدين عنها، لم تقطف من ثمرات التضحية إلا مثل ما قطفه غيرُها، وانقلبَت بنعمة من الله وفضل، لم يمسسْها سوء.

ولكن الأمم الإسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية، ولا بيع أَنْفُس، ولا مسابقة إلى الموت، ولا مجاهدة بالمال، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في النصر[3]، فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج/٤٠]، ويقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[محمد/ ٧].

ومن المعلوم أن الله تعالى غير محتاج إلى نُصرة أحد، وإنما يريد بنصرته تعالى إطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، ولكن المسلمين أهملوا جميع ما أمرهم به

(١) بَيْضَتها: أَصلها وسيادتها. (م).
(٢) ذَوْد: طَرْد ودفع. (م).
(٣) المنار: يراجع تفصيل هذه المسألة في أجزاء تفسير المنار، تجده بدلالة الفهارس في مواضع من أكثرها، منها: ١٣ موضعًا في الجزء الرابع منه، و٧ في الجزء الثاني، وآخرها في الجزء التاسع، ولها مزيد في بضع مواضع من الجزء العاشر. (رضا)

كتابهم في ذلك، أو أكثره، واعتمدوا في استحقاق النصْرَة على كونهم مسلمين موحّدين، وظنوا أن هذا يُغنيهم عن الجهاد بالأَنْفُس والأموال.

ومنهم من اعتمد على الدُّعاء والابتهال لرب العِزَّة، لأنه يجده أيسر عليه من القتل والبَذْل، ولو كان مجرَّد الدعاء يغني عن الجهاد، لاستغنى به النبي ﷺ وصحابته وسلف هذه الأمة، فإنهم الطبقة التي هي أولى بأن يسمع الله دعاءها.

ولو كانت الآمال تُبْلَغ بالأدعية والأذكار، دون الأعمال والآثار، لانتقضت سنن الكون، وبطَل التشريع، ولم يقل الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم/ ٣٩]. ولم يقل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة/ ١٠٥]، ولم يقل للمعتذرين عن القتال: ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة/ ٩٤]، ولم يقل: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ [آل عمران/ ١٩٥].

لقد ظن كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرَّد الصلاة والصيام، وكل ما لا يكلِّفُهم بذل دم ولا مال، وانتظروا على ذلك النصر من الله.

وليس الأمر كذلك، فإن عزائم الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام، ولا في الدعاء والاستغفار، وكيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا وتخلَّفوا، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا[1]؟!

---

(١) يظهر أن الأمير لم يقرن الزكاة بالصلاة والصيام لعلمه بأن أكثرهم تركها، وهي ركن الإسلام الدنيوي المادي، والصلاة ركنه الروحي، وهم يطلبون الدنيا ويتركون من الإسلام أهم أركانها - الزكاة والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله - وقد وصف الله المؤمنين الصادقين بالجهاد بأموالهم وأنفسهم، فقد ذكر المال وقال في سياق آيات القتال: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة/ ١٩٥]. أي بعدم الإنفاق، وقد قاتل الصحابة ﷺ من منع الزكاة، ولم يعتدوا بإسلامهم بدونها. (رضا).

اعتذار المسلمين عن أنفسهم وردُّه

يقولون: ليس عند المسلمين ما عند الإفرنج من الثروة والسَّعَة لينفقوا في أعمال الخير، وفي مساعدة بعضهم بعضًا.

فنقول لمن يحتج بهذه الحجّة: إننا نرضى منهم أن ينفقوا على نسبة رؤوس أموالهم، كما تقدَّم الكلام عند ذكر الجهاد بالمال، فهل المسلمون فاعلون؟

إننا نراهم قد محوا رسوم الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي تركها آباؤهم، فضلاً عن كونهم لا يتبرّعون بأموالهم الخاصّة، ولا يجرون مع الأوربيين في ميدان من جهة التبرُّع لأجل المشروعات العامّة، فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الأوربيين في البسطة والقوة والسُّلطان، وهم مقصِّرون عنهم بمراحل في الإيثار والتضحية؟ فإن العمل لأجل السلطان في الأرض، أشبه بالحرث في الأرض، فبقدر ما تشتغل فيها هي تُعطيك، وإن قصَّرتَ في العمل قصَّرتْ هي في الثمر، والمسلمون يريدون سلطانًا يشبه سلطان الأوربيين بدون إيثار ولا بذل، ولا فَقد شيء من لذائذِهم، وينسَون أن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة/١٥٥].

وقد يقولون: إننا جرّبنا البذل والتضحية، وابتُلينا بالنقص من الأموال والأنفس والثَّمرات وصبرنا، ولم يفدنا ذلك شيئًا، وبقي الأوربيون مسلَّطين علينا[1].

(١) إني أنقل هذا القول عن بعضهم لأني قد سمعته كثيرًا. (شكيب).

والجوابُ: هل يقدرون أن يقولوا لنا: إن ما يدّعونه من البذل والتضحية يشبه شيئًا ممّا يقوم به النصارى واليهود من هذا القبيل؟ أو أنه إذا نُسب إليه تكون نسبته نسبة الواحد في المئة؟

عندنا مثال حديث العهد هو مسألة فلسطين: حدثت وقائع دمويّة بين العرب واليهود في فلسطين، فأُصيب بها أناس من الفريقين، فأخذ اليهود في جميع أقطار الدُّنيا يُساعدون المصابين من يهود فلسطين، وأراد العالم الإسلامي أن يساعد عرب فلسطين -كما هو طبيعي، فبلغت تبرُّعات اليهود لأبناء ملّتهم من فلسطين (مليون) جنيه، وبلغت تبرّعات المسلمين كلّها (١٣) ألف جنيه أي نحو جزء من مئة[1].

---

(١) عنيت بهذه الواقعة الفتنة التي جرت سنة ١٩٢٩ ميلادية، وكان مجموع ما أعان به العرب إخوانهم في فلسطين ثلاثة عشر ألف جنيه لا غير، إلا أنَّ حوادث الدهر علّمت المسلمين وأيقظتهم، ونيران المصائب والخطوب أحسنت سَبْكَهم، ففي هذه السنوات العشر الأخيرة بدؤوا يقتدون باليهود والأوربيين في البذل، وساروا فيه على أثرهم، وإن كانوا لا يزالون في أوّل الطريق.

ولقد أحصيتُ إعانات العرب لإخوانهم في فلسطين بين سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨م فزادت على ما كان يحصل من قبلُ، ولكن هذه الإعانات أثمرت ثمرها، وثبّتت أقدام العرب في وجه الإنكليز واليهود، حتى اضطر الإنكليز إلى سَوْق (٣٠) ألف جندي هم في نضال مستمر من سنتين إلى الآن مع العرب، ووراءهم قوى عظيمة من البوليس واليهود المسلّحين والخائنين من العرب أنفسهم، ومن قوة شرقيّ الأردن، ولم يتمكّنوا من إخماد الثورة، ولا حصلوا على طائل، وعادت الإنكليز فنكصت على أعقابها، ورضيت بعقد مؤتمر في لندرة (لندن) تحضره وفودُ الدول العربية لمساعدتها على حلّ المعضلة الفلسطينية، ورجعت عن برنامجها الأول، وهو إعطاء فلسطين لليهود، راضية بأن يكون هؤلاء ثلث السكان، لا يزيدون على الثلث، فهذا التحوُّل نتيجة المقاومة، وهذه المقاومة إنّما كانت نتيجة البذل والسماح واستصغار الدنيا، ومن استصغر الدنيا كَبُرَتْ لديه، ومن هانت عليه الحياة جاءته الحياة على رجليها، سُنَّة الله في خَلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً. (شكيب).

فسيقولون: إن المسلمين لا يملكون مثل ثروة اليهود.

ونعود فنجيبهم: نرضى منهم بأن ينفقوا في مساعدة ملّتهم على قدر اليهود والإفرنج بالنسبة إلى رؤوس أموالهم، ولا نطالب منهم الفقراء، الذين لا يملكون ما يزيد على كفاية عائلاتهم. قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ ﴾ [التوبة/ ٩١]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ [التوبة/٩٣].

ونجيب أيضًا: إنه وإن كان اليهود أغنى بالأموال من المسلمين، فالمسلمون أكثر جدًّا بالعدد، لأن اليهود عشرون مليونًا، والمسلمين نحو من أربعمئة مليون[1]، فلو أن كُلاًّ من المسلمين تبرّع لفلسطين بقرش واحد - وهو الذي لا يعجز عنه أحد في العالم مهما اشتد فقرُه - لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف.

فلنترك تسعة أعشار المسلمين، ونفرض هذه الإعانة لفلسطين على عُشْر واحد منهم، أي على (٣٥) مليون نسمة لا غير. وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون

(١) بعد أن ثبت بالإحصاء الرسمي أنّ مسلمي الصين خمسون مليون نسمة تحقّق أنّ مسلمي المعمور كلّه لا يقلّون عن أربعمئة مليون، منهم (٢٤) مليونًا من العرب في آسية، و(١٧) مليونًا من الترك في الأناضول، و(١٦) مليونًا في إيران، و(١٠) ملايين في أفغانستان، و(٨٥) مليونًا في الهند، و(٥٦) مليونًا في جاوة، و(٢٥) مليونًا في روسية، وثلاثة ملايين في أوربة، و(٥٠) مليونًا في الصين، ومئة مليون في إفريقية.

نسمة نجدُهم حول فلسطين في لمحة بصر، فإن مسلمي مصر، وسورية، وفلسطين، والعراق، ونجد، والحجاز، واليمن، وعُمان هم (٣٥) مليونًا. ولنتقاض من هؤلاء أداء قرش واحد عن كل جمجمة، فماذا يجتمع لنا من ذلك؟

الجوابُ: يجتمع ثلاثمئة وخمسون ألف جنيه.

فالمسلمون قد تبرَّعوا عن هذه الأعداد كلّها بثلاثة عشر ألف جنيه، أي بما يساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كل نسمة من عُشْر عددهم!

أهذا ما تريدون أن تسمُّوه تضحية؟!

أَوَ بمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم؟!

أَوَ هذه درجة نجدتكم لإخوانكم في الدين، وجيرانكم في الوطن، والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى، الذي هو ثالث الحرمين الشريفين، وأول القبلتين؟

أفلم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/ ١٠]؟!

يقولون: لماذا سادت الأمّة الإنكليزية هذه السيادة كلّها في العالم؟

نجيبهم: إنها سادت بالأخلاق والمبادئ الوطنيّة العالية.

حدَّثني رجل ثقة أنه يعرف إنكليزيًّا ذا منصب في الشرق، كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يوميًّا من دكان رجل إنكليزي في البلدة التي هم فيها، فجاءه الخادم مرّة بجدول حساب وفَّر عليه به (٢٠) جنيهًا في مدة شهر. فسأله الإنكليزيُّ: كيف أمكنك هذا التوفير؟

فقال الخادم: تركنا دكان الإنكليزي الذي كنا نشتري منه، وصرنا نشتري من دكان أحد الأهالي من العرب.

فقال له الإنكليزيُّ: ارجع إلى دكان الإنكليزي الذي كنا نشتري منه.

فقال الخادم: أَوَ لَوْ كان ذلك يستلزم إنفاق (٢٠) جنيهًا زيادةً؟

قال الإنكليزيُّ: ولو كان ذلك يستلزم إنفاق (٢٠) جنيهًا زيادةً.

وسمعت أن كثيرين من الإنكليز الذين في الأقطار لا يشترون شيئًا ذا قيمة إلا من بلادهم، ويرسلون إلى «لندرة»، فيوصون على كل ما يحتاجون إليه حتى لا يذهب مالهم إلى الخارج.

أفنقيس هذا بأعمال المسلمين، الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم، وعلموا أنهم يَقْدرون أن يوفّروا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الإفرنجي، تركوا ابن جلدتهم أو ملّتهم، ورجّحوا الإفرنجي؟

أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه[1]؟ حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم، وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة موقّتة، ونسوا أن الضّرر الذي يُصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة.

[نتائج إعانة مصر لمجاهدي طرابلس وبَرْقة]

وكنت مرّة أشكو إلى أحد كبار المصريين إهمال إخواننا المصريين لمجاهدي طرابلس وبرقة، الذين إن لم تجب عليهم نجدتهم، قيامًا بواجب الأخوّة الإسلامية والجوار، وجبت عليهم احتياطًا من وراء استقلال مصر، واستقبال مصر، لأنه كما أن وجود الإنكليز في السودان هو تهديد دائم لمصر، فوجود الطليان في برقة، هو تهديد دائم لها أيضًا.

فكان جواب ذلك السيد لي: لقد بذل المصريون مبالغ وفيرة يوم شنت إيطالية الغارة على طرابلس، ولم يستفيدوا شيئًا، فإن إيطالية لم تلبث أن أخذتها.

---

(١) أما الآن فقد أصبح السواد الأعظم منهم يبذلون النفوس والنفائس في الدفاع عن وطنهم فلسطين، وأتوا في هذه السبيل بما ارتفعت له رؤوس العرب جميعًا، ولو أنّ هذه المناداة ظهرت منهم من أوّل الأمر ما وصلت المصيبة إلى هذا الحد. (شكيب).

فقلت له: إن المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضة هي دون شك تُرضي كل مسلم، بل ترضي كل إنسان يقدّر قدر الحمية، ولكن المبلغ الذي تبرّعوا به يومئذ معلوم، وهو (١٥٠) ألف جنيه.

فهل يطمع المسلمون في أنحاء المعمور أن يُنقذوا طرابلس من براثن إيطالية بمئة وخمسين ألف جنيه؟!

وهل هذه التضحية تُقاس في كثير أو قليل إلى التضحيات التي قامت بها إيطالية بالمال والرّجال؟

كانت إعانة مصر في الحرب الطرابلسية (١٥٠) ألف جنيه، وأنفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه، فانظروا إلى ما كان لذلك من النتائج:

النتيجة الأولى: وهي أهم شيء: حفظ شرف الإسلام، وإفهام الأوربيين أن الإسلام لم يمت، وأن المسلمين لا يسلّمون بلدانهم بلا حرب، وفي ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للإسلام ما لا ينكره إلا كل مكابر.

النتيجة الثانية: إن هذا المبلغ الضئيل بالنسبة إلى نفقات الدول الحربية قد كان السبب في توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة، بما رأوا من نجدة إخوانهم لهم، فكانت هذه المقاومة سببًا لتجشّم إيطالية المعتدية من المشاق

والخسائر ما هو فوق الوصف، إلى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرّحون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسيّة.

النتيجة الثالثة: مهما يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب في هذه الحرب، فإن مجموع قتلى الطليان إلى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافًا مضاعفة.

فلقد لقي الطليان في هذه الحرب من الأهوال مالا تتّسع لوصفه مقالة أو رسالة، وفي واقعة واحدة هي واقعة «الفويهات» على باب بنغازي ثبت فيها (١٥٠) مجاهدًا عربيًّا لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر إلى غروب الشمس، إلى أَن انقرضوا جميعًا، إلا أفذاذًا[١] أتى عليهم الليل، ورجع العدو ولمّا يموتوا، وبينما كان العرب في حزن عظيم على من فقدوهم في تلك المعركة إذ جاءهم الخبر البرقي من الأستانة عن برقية وردت سرًّا من برلين عن برقية رقميّة جاءت من سفارة الألمان في رومية (رومة) بأنه سقط في هذه المعركة ألف وخمسمئة جندي من الطليان، وأصاب الجنون سبعة من ضبّاطهم.

وهذه وقعة من خمسين وقعة بالأقل تضاهيها، فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشًا يفوقهم في العدد عشرين ضعفًا، وقتلوا نصفه، أي قتلوا عشرة أضعافهم، والله تعالى قد قدر لهم في حال القوّة أن يغلبوا عشرة أضعافهم، وفي

---

(١) أَفْذَاذًا: أَفْرَادًا. (م).

حال الضَّعف أن يغلبوا ضعفيهم فقط، كما قال في سورة الأنفال [٦٥-٦٦]: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

النتيجة الرابعة: أنه قد كانت نفقات إيطالية في الحرب الطرابلسية في السنة الأولى منها أي من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٢ نحو مئة مليون جنيه، ويُظن أنها من عشرين سنة إلى اليوم - إذ المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة - قد بلغت ثلاثمئة مليون جنيه[١].

فهذا كلّه كان نتيجة تلك الإعانات القليلة، والنفقات الضئيلة التي قام بها المسلمون في تلك الحرب، ولكن المسلمين ينتظرون أن تنهزم إيطاليا - الدولة الكبيرة التي أهلها (٤٤) مليون نسمة، ودخلها السنوي (٢٠٠) مليون جنيه -

(١) أما في هذا العهد فقد انقطعت المقاومة بالسلاح، وكان آخر من قاوم الطليان بالسلاح الشهيد والمجاهد الكبير عمر المختار - رحمه الله - (١٢٧٥-١٣٥٠هـ/ ١٨٥٨-١٩٣١م) إلا أنَّ الطرابلسيين لا يزالون يقاومون الاستعمار الطلياني، كما يقاوم التونسيون وسائر المغاربة الاستعمار الفرنسيّ، ومن العبث أن تظنَّ دول الاستعمار إخماد الحركات الوطنية بالعسف والقهر والقتل والنفي والحبس، فكلٌّ هذا لا يزيد المسلمين إلاّ عداءً، و«ما اسْتُصْلِحَ عَدُوٌّ بِمِثْلِ العَدْلِ». (شكيب).

في صدمة واحدة، أو في السنة الأولى من الحرب[1]، وإن لم يتحقَّق أملهم هذا انقطع منهم كل رجاء، وبطلت كل حركة، وأصاب بعضهم اليأس، الذي هو مرادف للكفر بصريح الذكر الحكيم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف / ٨٧].

---

(١) أي هذا عددها، وهذا دخلها، وهذا إنفاقها على الحرب.

وأمّا عصبيتها وضرواتها في سفك دماء المسلمين فحسب المسلم الذي لم يفسده التفرنج والإلحاد أنْ يقرأ النشيد الطليانيَّ، الذي ننقل ترجمته عن «جريدة الفتح» نقلاً عن «جريدة الشرق» عدد (٥٤٣) وهو:

[النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين ومحو القرآن]

«إنَّ من أعظم الآلام لشابّ في العشرين من عمره أن لا يُحارب في سبيل وطنه، مع دوام القتال في طرابلس، والراية المثلثة الألوان، والموسيقى الحربية، تنبّهان النفس المقدامة.

يا أمّاه! أتمّي صلاتك ولا تبكي، بل اضحكي وتأمّلي.

ألا تعلمين أنّ إيطالية تدعوني، وأنا ذاهب إلى «طرابلس» فرحًا مسرورًا، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة (كذا) ولأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان*.

سأقاتل بكلّ قوّتي لمحو القرآن (كذا).

ليسَ بأهلٍ للمجد مَنْ لم يمتْ إيطاليًا حقًا.

تحمّسي أيتها الوالدة، تذكّري «كاروني» التي جادت بأولادها في سبيل وطنها.

يا أمّاه! أنا مسافر، ألا تعلمين أنّ على الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستُلْقِي سفائنُنا المراسي؟

أنا ذاهبٌ إلى طرابلس مسرورًا، لأنّ رايتَنا المثلثةَ الألوان تدعوني، وذلك القطرُ تحتَ ظِلّها.

لا تموتي لأننا في طريق الحياة، وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك، ولكن اذهبي في كلّ مساء، وزوري المقبرة، ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك، الذي يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك، وإنّ سألك أحدٌ عن عدم حدادك عليَّ فأجيبيه: إنّه مات في محاربة الإسلام.

الطبل يقرع يا أمّاه! أنا ذاهبٌ أيضًا، ألا تسمعين هزَجَ الحرب، دعيني أعانقك وأذهب!».

*الديانة الإسلامية لا تجيز للسلطان إلاّ ما تجيزه لغيره من المسلمين، وهو تزوّج البكر والثيّب، ولكن الإفرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الإسلام، وتبيح لهم مدنيتهم الزّنا، حتى أفسدوا كلَّ قطرٍ دخلوه ببغاياهم؛ لاسيما الطليان منهم. (رضا).

ولنضرب مثلا ثالثًا، ونمسك بعده عن ضرب الأمثال، لأنها لا تعد ولا تُحصى:

قام أهل الريف المغربي في وجه الدولة الإسبانية مدّة بضع سنين، إلى أن تغلّبوا عليها، وطردوا جيوشها، بعد أن أبادوا منهم في واقعة واحدة (٢٦) ألف جندي، وغنموا (١٧٠) مدفعًا، مع أن جميع أهل الريف بقضّهم وقضيضهم[١] ثمانمئة ألف نسمة، وعدد أهالي إسبانية (٢٢) مليون نسمة، وأراضي الريف أكثرها قاحل، والأهالي فيه فقراء، يعيشون من كسب أيديهم، لقد قاموا بعمل أدهش أهل الأرض بالطول والعرض.

فلو كان أهل الريف نصارى لانثالت[٢] عليهم الملايين من الجنيهات من كل الجهات، إما بطريقة خفيّة، وإما بواسطة جمعية الصليب الأحمر في سبيل مداواة جرحاهم.

فليقل لنا المسلمون: كم جنيهًا قدَّموا للريف في ذلك الوقت؟

ثم تألّب[٣] الفرنسيس مع الإسبانيول، وحشدوا لحرب الريفيين (٣٠٠) ألف مقاتل، وحصروا الريف من كل جانب، من البر والبحر، وكانت طياراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفيين تُحصى بالمئات لا بالعشرات، ولم تكف

---

(١) بقضّهم وقضيضهم: المقصود جاؤوا جميعًا بكبارهم وصغارهم، والقَضُّ: الحصى الكبير، والقضيض: ما تكسر منه. (م).

(٢) انثالت: انصبّت وانهالت. (م).

(٣) تألّب: انضم وتجمع. (م).

طيارات الفرنسيس والإسبانيول حتى جاء سرب طيارات أميركية من نيويورك نجدة لفرنسة وإسبانية النصرانيتين على المسلمين لأنهم مسلمون.

هذا كلُّه والمسلمون ينظرون إلى حرب الريف مكتوفي الأيدي، ولبثوا مكتوفي الأيدي مدّة سنة، وأخيرًا نهض منهم أفراد لجمع شيء من أجل جرحى الريف، ولأجل بعث الحميَّة في الناس لم يكتف محرر هذه السطور بالكتابة، بل تبرَّع بأربعة جنيهات لأجل القدوة، فماذا كان مجموع تلك الإعانات من كل العالم الإسلامي؟

الجواب (١٥٠٠) جنيه لا غير، فهل من خذلان بين المسلمين يفوق هذا الخذلان؟!

خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم بخدمة الأجانب، واعتذارُهم الباطل

ويا ليت المسلمين وقفوا عند هذا الحد في خذلان الريفيين، بل قامت منهم فئات يقاتلون الريفيين بأشد مما يقاتلون به الأجانب، وتألّبت على محمد بن عبد الكريم قبائل وافرة العدد، شديدة البأس، مالؤوا[١] الفرنسيس والإسبانيول على أبناء ملتهم ووطنهم، تزلُّفًا إلى الفرنسيس والإسبانيول، وابتغاء الحظوة لديهم.

وقد جرى مثل ذلك عندنا في سورية يوم الثورة على فرنسة، وجرى في بلاد إسلاميّة كثيرة[٢]، أفبمثل هذه الأعمال يطالب أخونا الشيخ بسيوني عمران ربَّه بما وعد تعالى به من جعل العزَّة للمؤمنين؟!

وإذا سألت هؤلاء المسلمين الممالئين للعدو على إخوانهم: كيف تفعلون مثل هذا، وأنتم تعلمون أنه مخالف للدين وللشرف، وللفتوة وللمروءة، وللمصلحة وللسياسة؟

---

(١) مالؤوا: ناصروا وساعدوا. (م).

(٢) والآن عساكر شرقيّ الأردن، وهم من العرب، يقاتلون بكلّ شدَّة مجاهدي فلسطين، الذين هم إخوانهم في النَّسَب والمذهب، وهم يعلمون أنَّ هؤلاء المجاهدين إنما يذودون عن حياض العروبة والإسلام، ويجودون بنفوسهم لأجل استحياء قومهم، واستبقاء وطنهم للعرب، وأنّه لولا هؤلاء المجاهدون لتسلّم اليهودُ جميع فلسطين من زمن طويل تحت ظلّ حراب الإنكليز، فبينما دماء المجاهدين تسيلُ لأجل حفْظ فلسطين للعرب، تجد دماء عساكر عربية في شرق الأردن تسيل لأجل إخراج بلاد فلسطين وشرق الأردن نفسها بعد فلسطين من أيد العرب.

فهل يبلغ العدو من عدوِّه أكثر مّما يبلغ العرب من أنفسهم؟ لا والله. (شكيب).

أجابوك: كيف نصنع؟! فإن الأجانب انتدبونا، ولو لم نفعل لبطشوا بنا، فاضطررنا إلى القتال في صفوفهم خوفًا منهم، ونسوا قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة/ ١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران/١٧٥].

وكلام مثل هؤلاء في الاعتذار غير صحيح، فإن الأجانب قد ندبوا كثيرًا من المسلمين إلى خيانات كهذه، فلم يجيبوهم، ولم تنقض عليهم السماء من فوقهم، ولا خُسفت بهم الأرض من تحتهم.

ثم إنه إن كان الأجانب المحتلّون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يغضبون على المسلمين، الذين لا يلبّون دعوتهم إلى خيانة قومهم، فإنما كان ذلك من أجل كثيرين من المسلمين، كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة إخوانهم، ويقومون بها بكل نشاط ومناصحة، ويبدون كل أمانة لهم في أثناء تلك الخيانة، ولولا هذا التبرُّع بالخيانة، والتسرُّع إلى مظاهرة الأجنبي على ابن الملّة، لما استأسد[1] الأجنبيّ، وصار يتحكَّم في المسلمين هذا التحكّم الفاحش، ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم، ومتقضّي مصلحة دنياهم من أجل مصلحته، بل قام يحملهم على الموت لأجل الموت.

---

(١) استأسد: اجترأ وأقدم على المهاجمة. (م).

فإن الموت موتان:

أحدهما: الموت لأجل الحياة، وهو الموت الذي حث عليه القرآن الكريم المؤمنين، إذا مد العدو يده إليهم، وهو الموت الذي قال عنه الشاعر العربي:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَم أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَن أَتَقَدَّما

وهو الموت الذي يموتُه الإفرنسي لأجل حياة فرنسة، والألماني لأجل حياة ألمانية، والإنكليزي في سبيل بريطانية العظمى - وهلم جَرًّا - ويجده على نفسه واجبًا، لا يتأخَّر عن أدائه طرفة عين.

وأما الموت الثاني، فهو الموت لأجل استمرار الموت، وهو الذي يموته المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهم. وذلك أنهم يموتون حتى ينصروها على أعدائها، كما يموت المغربي مثلاً حتَّى تنتصر فرنسة على ألمانية مثلاً. ويموت الهندي حتى تتغلَّب إنكلترة على أي عدو لها، ويموت التَّتري في سبيل ظفر روسية، والحال أنه بانتصار فرنسة على أعدائها تزداد في المغرب غطرسة وظلمًا، وابتزازًا لأملاك المسلمين، وهضمًا لحقوقهم، وذلك كما حصل بعد الحرب العامة، إذ ازداد طمع الفرنسيس في أهل المغرب، وحدَّثوا أنفسهم بتنصير البربر، ليدمجوهم في الشعب الفرنسي، ويأمنوا على مستقبل المغرب، الذي صاروا يطلقون عليه لقب (إفريقية الإفرنسية).

وبالاختصار يموت المغربي على ضفاف الرين، أو في سورية، حتى يزداد موتًا في المغرب، لأن كل طائلة تفوز بها فرنسة في الخارج هي زيادة في قهر المغربي

وإهانته وإذلاله، مما لا سبيل للمناكرة فيه، ومما قد ثبت بالتجربة. وكذلك موت الهندي في نصرة إنكلترة، هو تطويل في أجل عبوديّة الهند. وكذلك موت التّتري في خدمة روسية لا عاقبة له سوى ازدياد قهر الروس للتتر، وهلم جَرًّا.

وهذا الموت لأجل الموت هو ما كان بخط منحنٍ كما يُقال، أي باعتبار النتيجة، ولكنه هناك موت لأجل الموت مباشرة من دون واسطة، وهو عندما يموت المغربي في قتال أخيه المغربي، الذي قام يحاول أن يُزَحزح شيئًا من النِّير الإفرنسي الذي كان يدق عنقه، وإن لم يدق عنقه بتاتًا استحياه حياة هي أشبَه بالموت منها بالحياة.

ولو انحصرت هذه الأمور في العوام والجهلاء لعذرناهم بجهلهم، وقلنا: إنهم لا يدرون الكتاب ولا السنة، ولا السياسة الدنيوية، ولا الأحوال العصرية، وإنهم إنما يُساقون كما تُساق بهيمة الأنعام إلى الذّبح.

ولكن الأنكى[١] هو خيانة الخواص، مثال ذلك: الوزير المقري، الذي هو أشد تعصبًا لقضية رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر من الفرنسيس أنفسهم[٢].

---

(١) الأَنْكَى: الأكثر همًّا. (م).

(٢) ويؤكّدون أنّه كلّما أرادت فرنسا تحت تأثير سخط العالم الإسلامي أنْ تعدِلَ عن الظهير البربري المقصود به إخراج البربر من الإسلام بتاتًا، جاء هذا المقري، يحذّرها عاقبة الرّجوع إلى الصواب، ويقول لها: إنَّ أهالي المغرب يعدُّون هذا منها نكوصًا وضعفًا، وبعد ذلك لا يمكنُها أن تثبِّت أقدامها في شمالي إفريقية، فالمقري إذًا هو أكبرُ مشجّع للحكومة الإفرنسية على المضيّ في سياستها البربرية، التي ترمي إلى تنصير البربر، وإدماجهم في الأمة الإفرنسية. (شكيب).

ومثله البغداديّ، باشا فاس، الذي طرح نحو مئة شخص من شبّان فاس، وجلدهم بالسياط، لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين، وأخذوا يردّدون دعاء: «يا لطيف الطف بنا فيما جرت به المقادر، ولا تفرّق بيننا وبين إخواننا البرابر» ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الإسلامي مِن بين البرابِر ليس بإخراج للبربر من الإسلام .. وهلم جَرًّا.

وكل مِن هؤلاء الخونة المارقين - أخزاهم الله - قد بلغ من الكِبَر عتيًّا[١]، وانتهى من أموال الأُمّة شِبَعًا ورِيًّا[٢]، وهو لا يزال حريصًا على الزُّلفى[٣] إلى فرنسة، وإثبات صداقته لها، ولو بضياع دينه ودنياه، حتّى تُبقي عليه منصبه وحظوظه في هذه البقيّة الباقية من حياته التاعسة[٤].

وليس واحدًا من هؤلاء ولا مَن في ضَرْبهم في المغرب إلا وهو مطّلع على نيّات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمّة البربر.

---

(١) بلغ من الكبر عتيًّا: جاوز الحد من العمر. (م).
(٢) ريًّا: شبعًا من الماء حتى ذهاب العطش، والمقصود أخذ كل ما يتمنى. (م).
(٣) اَلزُّلْفَى: القُرْبَى. (م).
(٤) الغريب في هذا أنَّ أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادهم كلَّها للأجنبي بثمن خسيس، هو جزء منها لا من مال الأجنبي، ولو أخلصوا في صَدّه عنها لكان لهم منها أكثر مما يعطيهم الأجنبيُّ منها، ثم يكون باقيها لأولادهم وأهليهم وإخوانهم في الدين مع العزّ والشرف. (رضا).

وليس فيهم إلا مَن هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات، يجوس[١] خلال بلاد البربر، ويبني الكنائس، ويصيد اللّقطاء[٢] والأيتام والفقراء وضعفاء الإيمان[٣].

وليس فيهم إلا من هو عالم بمنع فرنسة فقهاء الإسلام والوعّاظ من التّجوال بين البربر، حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية[٤].

وقد يكون «المقري» و«البغدادي» هذان هما في مقدّمة الموقّعين على الأوامر بمنع علماء الإسلام وحَمَلَة القرآن من الدخول إلى قرى البربر.

وقد يكون «المقري» هذا هو الذي خصَّص المبلغ من مال المخزن لجريدة «مراكش الكاثوليكية» التي تطعن في الإسلام، وتقذفُ[٥] محمدًا عليه الصلاة والسلام، ولدينا كثير من أعدادها التي تتضمَّن هذه المطاعن[٦].

---

(١) يَجُوس: يتردد جيئة وذهابًا. (م).

(٢) اللقطاء: جمع «لقيط» وهو المولود الملقى على الطريق فلا يُعرف أبواه فيلتقطه الناس. (م).

(٣) ومما هو جارٍ في المغرب أنَّ الأذان لصلاة الفجر ممنوعٌ في كثير من القرى التي يقطنها مستعمرة الفرنسيس، وذلك لأنّه قد يعكّرُ عليهم صفوَ رقادِهم صباحًا. (شكيب).

(٤) وقد منعوا الوعّاظ في شهر رمضان من الذهاب إلى بلاد البربر، وكانوا يحبسون من يخالف هذا الأمر، وقد أقفلوا مئات من الكتاتيب القرآنية في المغرب، ومئات من مثلها في الجزائر، وأغلقوا دار الحديث في تلمسان، واحتجّت على ذلك جمعية علماء المسلمين في الجزائر، فما سمعوا لها كلامًا، وأصرَّ بعض رجال الدين الإسلامي في الجزائر على تعليم القرآن للأحداث، فحاكموهم، وحكموا عليهم بالسجن أربعة أشهر، بحجّة أنهم خالفوا الأوامر الصادرة، وهلم جرًّا. (شكيب).

(٥) تقذف: تَسُبُّ. (م).

(٦) المَطَاعِن: العُيُوب والاعْتِرَاضَات. (م).

وبعد هذا فمن يدري؟ فقد يكون المقري مصلّيًا وصائمًا، وبيده سُبْحَة يقرأ عليها أورادًا!

ومن يدري؟ فقد يكون البغدادي السيِّئ الذكر ممن يتمسَّحون بالقبور، ويستغيثون بالأولياء، ويتظاهرون بهذا الورع[1] الكاذب!

وأما المفتي، فهو المفتي، فلا حاجة إلى تثبيت كونه يصلّي الخمس، ويصوم ويتهجَّد ويُوتِر ويتنَفَّل... إلخ.

وقد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا لأوائل عهد الاحتلال، لكن لم تكن خيانة هؤلاء المعمّمين في قضية دينية مباشرة، فقد اقترحت عليهم فرنسة أن يمضوا برقية إلى جمعية الأمم، ينكرون بها عمل المؤتمر السوري الفلسطيني، المطالب باستقلال سورية وفلسطين، فأمضاها منهم عمائم مكورة، وطيالِسُ[2] محبرة مجرّرة، ورقاب غليظة، وبطون عظيمة، وإن لم أقل الآن: أخزاهم الله، أخشى عتاب إخواننا المغاربة، الذين يرونني خصصت بهذا الدعاء صَدْرَهم الأعظم، ومفتيهم الأكبر، وأعفيت معمَّمي سورية، فلذلك يقضي العدل بأن نقول: أخزاهم الله أجمعين، أخزى الله الذين منهم في المشرق والذين منهم في المغرب، ممن يوقّعون على اقتراحات الأجانب المضرّة بالدين والوطن[3].

(١) الوَرَع: الابتعاد عن الإثم على سبيل التقوى. (م).

(٢) طَيَالِس: مفرده «طليس» أو «طيلسان»، وهو شال أو وشاح أو كساء أخضر يضعه بعض المشايخ على الكتف. (م).

(٣) على أنّهم في السنة التالية أرادوهم على إمضاء بيانات خبيثة كهذه، فامتنعوا، واحتجّوا لدى الفرنسيس بأنّ عملهم ذاك قد عرَّضهم للإهانة، واستوجب مقت الشعب السوري لهم، فهم لن يكرّروا تلك الخيانة. وهذا =

ولعل الأخ الشيخ «بسيوني عمران» يقول: إن هؤلاء أفراد قلائل، فلا يجوز أن نجعل الأمّة الإسلامية مسؤولة عن مخازيهم[١] وموبقاتهم[٢].

والجواب على ذلك: إن الظلم يخصّ، والبلاء يعمّ، كما لا يخفى، ولكنني لا أسلِّم أن هؤلاء أفراد قلائل، وأن الأمة غير مسؤولة! إذ لو كان وراء هؤلاء أمة يخشونها ما تجاسروا على الاتّجار بدينها بعد الاتّجار بدنياها، بل كانوا لو اقترح عليهم الفرنسيس اقتراحًا مضرًّا بملّتهم وأمّتهم، ولم يقدروا على ردِّه، اعتزلوا مناصبهم، ولزموا بيوتهم.

وكان الفرنسيس كلَّفوا بالعمل غيرَهم، فإذا أبى هذا الخَلَف ما أباه السَّلَف مرّة بعد مرة علم الفرنسيس أن لا فائدة في الإصرار، فعدَلُوا عن دسيستهم البربرية وما أشبهها، ولكنهم مصرّون عليها بسبب استظهارهم بأُناس ممن يزعمون أنهم مسلمون، فهم يهدمون الإسلام بمعاول في أيدي أبنائه، ويقولون: لسنا من هذا الأمر في قبيل ولا دَبيرٍ[٣].

= دليلٌ على أنَّ الأمّة تقدر متى شاءت أنْ تُقَوِّم أَوَدَ هؤلاء المشايخ، وأنَّ الخائنين الخادمين لدول الاستعمار ليس لهم علاج إلا الخوف على جلودهم. (شكيب).

(١) مَخَازيهم: المخَازي: الكوارث والمصائب. (م).

(٢) موبقاتهم: الموبقات: الكبائر من المعاصي، والذنوب المُهلكة. (م).

(٣) وجميع الدول المستعمرة المتسلِّطة على ممالك الإسلام طريقتها الاستظهار على المسلمين بالمسلمين، وقضية شرقيّ الأردن والخونة من عرب فلسطين من أنصع الشواهد على هذه الحالة.

أفلا ترى كيف قالوا عن الظهير البربري: إنه قد أصدره السلطان وحكومة المخزن[١]؟

أفهذا هو الإسلام الذي يُناشد اللهَ الشيخُ بسيوني عمران بتأييد أهله؟ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود/ ١١٧].

ولا شك أن المسلمين الذين يبلغون هذه الدرجات من الانحطاط، وتتركهم الأمّة الإسلامية وشأنهم، يلعبون بحقوقها: يستحقّون للإسلام التمحيص الذي هو فيه[٢]، فإنما سمح الله بأن يستولي الأجانب على ديار المسلمين، ويجعلوهم خَوَلاً[٣]، ويغتصبوا جميع حقوقِهم تعليمًا لهم وتهذيبًا، وتصفية وتطهيرًا، كما

---

(١) أفلا ترى كيف أنّهم قتلوا في مكناسة الزيتون (٣٥) مسلمًا، وجرحوا (٦٠) من أجل مظاهرة غير مسلّحة قام بها الأهالي احتجاجًا على سلب السلطة مياه بساتينهم من أجل إعطائها إلى مستعمرة الفرنسيس، وزعموا أنّ فعلهم هذا باسم السلطان.
ألم ترَ أنّهم ألغوا الحزب الوطني المغربي، وحكموا على ألفين وخمسمئة شاب منهم بالحبس سنة وسنتين، ونفوا علالاً الفاسي إلى بلاد خط الاستواء، ونفوا نخبة رجالات المغرب إلى الصحراء، وضربوا ضربًا مبرحًا عشرات من الأدباء، منهم: الأستاذ محمد المقري، الذي مات تحت الضرب، وكل هذا باسم السلطان، والسلطان لا يُبدي ولا يعيد، ولا يقدر أن يدفع عن رعيته التي مرجعها إلى الجنرال «نوغيس» واضع أساس المشروع البربريّ الأثيم. (شكيب).

(٢) هكذا في الأصل، ومعنى (يستحقون) هنا: يستوجبون على قول الفارابي، واللام في الإسلام للتقوية، والمراد بها المسلمون. والمعنى: يستوجبون بجرائمهم تمحيص المسلمين في جملتهم، ليميز الله الخبيث من الطيّب. ويفسّره ما بعدَه، وهو مستنبطٌ من قوله تعالى في سياق غزوة أحد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤١]. فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المأثور المؤثّر في الجزء الرابع من تفسير المنار. (رضا).

(٣) ويجعلوهم خَوَلاً: يجعلوهم خدمًا. (م).

يُصفَّى الذَّهب الإبريزُ[١] بالنار، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم/ ٤١].

لقد أصبح الفساد إلى حد أن أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون، وأن المسلم إذا أراد أن يخدم مِلَّته أو وطنه، قد يُخشى أن يبوح بالسِّر من ذلك لأخيه، إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى الأجانب المحتلّين، فيقدّم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزُّلفى[٢]، وقد يكون أملُه بها فارغًا[٣].

[كلمة الملك ابن سعود في تخاذل المسلمين وتعاديهم]

ولله دَرُّ الملك ابن سعود حيث يقولُ: ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين[٤]. وهو كلام أصاب كبد الصواب، فإنه ما من فَتْحٍ فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه أو

---

(١) الإبريز: الذَّهب الخَالِص. (م).

(٢) الزُّلفى: القربى. (م).

(٣) لم يخلُ بلد من بلدان الإسلام من هؤلاء الخائنين، الذين تجعلهم دول الاستعمار مطايا لها في الاستيلاء على تلك البلدان، وهم يسعون بين أيديها في كلّ دسيسة، ويدلّونها على عورات المسلمين، وما ينكرون أنّهم بهذا العمل يخونون أنفسهم، وما يشعرون أنّهم أشبه بمن يصعدُ على الشجرة، ويشرع بقطع جذعها من تحته، فيسقط هو عنها بما كسبت يداه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[الأنعام/ ١٢٣]. (شكيب).

(٤) وقال في محفل حافل بحجّاج الأقطار (وقد طالبه مصري أزهري بمحاربة الإنكليز والفرنسيس المعتدين على المسلمين، ذاكرًا عداوتهم لهم): الإنكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا، لأنَّه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين، ولا لغة ولا مصلحة، ولكنَّ المصيبة التي لا عذر لأحد فيها أنَّ المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم، وأنا والله لا أخاف الأجانب، وإنما أخاف المسلمين، فلو حاربت الإنكليز لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين. (رضا).

قسم منه على أيدي أناس من المسلمين، منهم من تجسَّس للأجانب على قومه، ومنهم من بث لهم الدعاية بين قومه، ومنهم من سل لهم السيف في وجه قومه، وأسال في خدمتهم دم قومه.

فأين إسلامهم وإيمانهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/ ١٠]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة/ ٥١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة/ ٩]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال/ ١].

أفبمثل هذا تكون طاعة الله ورسوله ﷺ؟

أم بمثله تكون أخوَّة الإيمان وولايته وولاية أهله؟

أَوَ لمثل هؤلاء يعد الله العز والنصر والتمكين في الأرض، وهم سعاة بين أيدي الأجانب على ملّتهم ووطنهم وقومهم؟ كلَّما عاتبهم الإنسان على خيانة اعتذروا بعدم إمكان المقاومة، أو باتقاء ظلم الأجنبي، أو بارتكاب أخف الضررين؟

وجميع أعذارهم لا تتكئ على شيء من الحقّ، ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملَّتهم بسيوفهم، فإن لم يستطيعوا فبأقلامهم، فإن لم يستطيعوا فبألسنتهم،

فإن لم يستطيعوا فبقلوبهم[١]، فأَبَوْا إلا أن يكونوا بطانة[٢] للأجانب على قومهم، وأَبَوْا إلا أن يكونوا روَّادًا لهم على بلادهم، وأبوا إلا أن يكونوا مطايا للأجانب على أوطانهم. وتراهم مع ذلك وافرين، ناعمي البال، متمتِّعين بالهناء وصفاء العيش، وهم يأكلون ممّا باعوا من تراث المسلمين، ومما فجروا من دماء المسلمين، وينامون مستريحين، مثل هؤلاء ليس لهم وجدان يعذِّبهم من الداخل، ولا نجد من المسلمين من يجرؤ أن يعذبهم من الخارج[٣].

لم نكن لنطلق الكلام إطلاقًا على العالم الإسلامي في هذا الموضوع، فإن الأمة الأفغانية مثلاً لا يمكن أحدًا أن يَحْطِب فيها في حبل الأجانب عَلنًا ويبقى حيًّا، والنجديّون لا يوجد فيهم من يجرؤ أن يمالئ الأجانب على قومه، والمصريون قد ارتقت تربيتهم السياسيّة كثيرًا عن ذي قبل، فأصبحت مجاهرة أحدهم بالميل للأجنبي، أو تفضيل حكم الأجنبي خطرًا عليه، فأمّا في سائر بلاد الإسلام فمن شاء من المسلمين أن يخلع الرّسَنَ[٤]، ويجاهر بالعصيان لعدو دينه وبلده فلا يخشى شرًّا، ولا يحاذر قلقًا ولا أرقًا.

---

(١) إشارة إلى حديث: «مَنْ رأى مِنْكُم مُنْكَرًا فليُغيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يَسْتَطِع فَبِلِسَانِه، فإنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبِقَلْبِه، وذلك أضعفُ الإيمان»، رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن كلّهم، وهذا في وجوب تغيير المنكرات يفعلها المسلم، فماذا يُقال في مقاومة هَدْم الإسلام من أساسه؟! (رضا).

(٢) البطَانَة: الخَاصَّة وأهل الثِّقة المُقرَّبين. (م).

(٣) أمَّا في فلسطين، فقد تجرَّأ المجاهدون أخيرًا على تعذيب الخائنين، ولقي كثير من هؤلاء جزاءهم الأوْفى، وجاء الوقت الذي عرف فيه خائن قومه أنّه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود/ ٤٣]، فعسى أن يكون في ذلك عظة وعبرة لسائر العالم الإسلامي. (شكيب).

(٤) الرَّسَن: القَيْد. (م).

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ ﴾[النور/ ٥٥]!

حاشا لله تعالى أن يكون عنى بهؤلاء المسلمين الذين يخونون مِلَّتهم، ويسعون بين أيدي أعدائها، ويُناصبون إخوانهم العداوة[١] ابتغاء مرضاة الأجانب، والحصول على دنيا زائلة، وحطام فانٍ، كيف وقد قرن الإيمان بلازمه، وهو عمل الصالحات؟! بئسما شَرَوْا[٢] به أنفسهم.

وكذلك لا يعني الله بهؤلاء المسلمين الذين إن لم يكونوا خَامَرُوا[٣] على قومِهم، وسَعَوْا بين أيدي الأجانب في خراب أمّتهم، وأوطؤوا مناكبهم[٤] لركوب الغريب الطامح، فإنهم اكتفوا من الإسلام بالركوع والسّجود، والأوراد والأذكار، وإطالة السُّبْحَة والتلوُّم[٥] في السجدة، وظنوا أن هذا هو الإسلام.

ولو كان هذا كافيًا في إسلام المرء وفوزه في الدنيا والأخرى، لما كان القرآن ملآنَ بالتحريض على الجهاد، والإيثار على النفس، والصِّدْق والصّبر، ونجدة المؤمن لأخيه، والعدل والإحسان، وجميع مكارم الأخلاق.

(١) يُناصِبون إخوانهم العداوة: يُظْهِرونها لهم. (م).
(٢) شَرَوْا: باعوا. (م).
(٣) خَامَرُوا: خَادَعُوا. (م).
(٤) أوطؤوا مَنَاكِبَهم: لانُوا. (م).
(٥) التلوّم: المكث والتطويل. (م).

ولو كان هذا كافيًا لأجل التحقُّق بالإسلام لما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة/ ٢٤][1].

أَفَيَقْدر أَخونا الشيخ بسيوني عمران أو غيرُه أن يقول: إن المسلمين اليوم - إلا النادر الأندر؛ والكبريت الأحمر - يفضّلون الله ورسولَه على آبائهم وإخوانهم وأزواجهم وتجارتهم وأموالهم ومساكنهم، أو يؤْثِرون حُب الله ورسوله - وإنما حُب الله ورسوله إقامة الإسلام - على الجزء اليسير من أموال اقترفوها[2]، وتجارة يخشون كسادها[3]؟

[الموازنة بين المسلمين والنصارى في البذل لنشر الدين]

لنعمل هذه التجربة، فبضدِّها تتبيَّن الأشياء.

لنفرض أن مسألة تنصير البربر دخلت في طور النجاح، وانتدب البابا الكاثوليكيين الذين في العالم، لبذل الأموال اللازمة لهذا التحويل الذي

---

(١) راجع تفسير الآية وما قبلها في ص ٢٢٤: ٢٤٢ ج١٠ من تفسير المنار. (رضا).
(٢) أموال اقترفوها: أموال اقتنوها واكتسبوها. (م).
(٣) كسادها: ركودها وقلة رواجها. (م).

تتوخَّاه فرنسة في البربر من دين الإسلام إلى دين النصرانية، فكم مليونًا تظن من الجنيهات يدر على المبشِّرين والرهبان والراهبات لبناء الكنائس، والمدارس، والملاجئ، والمستشفيات، ومراكز الأسقفيات، وما أشبه ذلك، لإتمام هذا العمل الذي تضم به الكثلكة ثمانية ملايين من البربر إلى الأربعمئة مليون كاثوليكي الذين في العالم؟ لاشك أن الجواب يكون: عِدَّة ملايين تُجْمَع في بضعة أشهر.

فإن قيل للبروتستانتيين: تعالَوْا فقد أذنّا لكم في تنصير البربر، فابذلوا في هذه السبيل ما أمكنكم، فإنها تدر حينئذ الملايين بِقَدْر ضعفي ما يدر من الكاثوليكيين، وفي مدّة أقصر من المدّة التي يُجْمَع فيها المال الذي يجود به هؤلاء.

فلنقل للمسلمين: إن البربر صاروا على شفا الخروج من الإسلام، وإن الأُسَّ[١] في هذا الصُّبُوء[٢] عن دين الإسلام هو الجهل، فعلينا أَن نُرسل إليهم عُلماء ووعَّاظًا، ليتفقّهوا في الدين، وأن نبني لهم المساجد، والمدارس، والكتاتيب، والملاجئ، إلى غير ذلك من الوسائل، التي تمسك بحُجُزاتهم[٣] عن مفارقة الإسلام والمسلمين، فكم تظن المبلغ الذي يجود به المسلمون بعد اللُّتَيَّا والتي[٤]

(١) الأُسّ: الأساس وأصل الشيء. (م).
(٢) الصُّبُوء: مصدر «صَبَأ»: خرج من دين إلى دين. (م).
(٣) تمسك بحُجُزَاتهم: تعصمهم. (م).
(٤) بعد اللُّتَيَّا والتي: بعد الخصام والجدل. (م).

لهذا العمل؟ لا أظن أنهم يجودون بما يتجاوز جزءًا من مئة مما يبذلُه الكاثوليك أو البروتستانت[١].

فهذه هي حَمِيّة [٢] المسيحية على دينهم، وهذه هي حميّة المسلمين.

ومن الناس من يسأل عن أسباب انحطاط المسلمين، وقصورهم عن مباراة سواهم، ولو تأمَّل في هذه الفروق في النهضة والحميّة لوجد عندها الجواب الكافي.

ومن أغرب الأُمور أن نرى الأوروبيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين بعد هذا كلِّه يتَّهمون المسلمين بالتعصُّب الدينيّ، وينبزونهم بلقبه[٣]، وينتحلون لأنفسهم التساهل في الدين! إن هذا والله لَعَجَب عُجَاب.

وها أنذا الآن في كتابتي هذه التي معناها الدفاع لا التجاوز، والأستاذ الأكبر صاحب المنار، و«عبد الحميد بك سعيد» رئيس جمعيّة الشبان المسلمين، وغيرنا من المدافعين عن حق الإسلام، والرجال الذين يبغون منع الاعتداء على

---

(١) شاع أنَّ المنبوذين من الهنود يريدون فراق مذهب الهنادك، وأن منهم من شرح الله صدره للإسلام، فأرسل الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر وفدًا من علماء الشريعة إلى الهند، ليتحقق هل ثمة أمل في هداية المنبوذين، أم ذاك نفخٌ في غير ضرم، وعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها خبر إرسال هذه البعثة الأزهرية إلى الهند، ولم تتحرك همة واحد منهم إلى تخصيص ما يوازي القطمير لأجل هداية هؤلاء المنبوذين، الذين يزيدُ عددهم على ستين مليونًا. هذا بينما المبالغ التي يجمعها المسيحيون في كل عام لأجل تغذية التبشير المسيحي في آسية وإفريقية تقدّر بعشرين إلى ثلاثين مليون جنيه!! فهل تطمع هذه الأمة أن تجاري تلك الأمة، وبينهما كل هذا الفرق؟! (شكيب).

(٢) حَمِيَّة: أَنَفَة وغضب. (م).

(٣) ينبزونهم بلقبه: النَّبْز بالألقاب: المُعَايرة بالألقاب والدعاء بما يُكره من الألفاظ. (م).

الإسلام، وينادون المسلمين لينتبهوا للخطر المحدق بهم؛ متَّهمون بالتعصُّب الدينيّ، ومنبوزون بهذه الكلمة، لا بين غير المسلمين فقط، بل بين (المسلمين الجغرافيين) أيضًا - أعني الذين يتباهون بأن سياستهم (لا دينية) وطالما صرَّحوا بأنهم لا يقيمون للدّين وزنًا، وطالما تزلَّفوا إلى المسيحيين، بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الإسلامي، كما يدافع زيد وعمرو.. وهؤلاء فئة معروفة يَعْرفهم الناس، وهم يعرفون أنفسهم.

ولو فكَّر المسيحيون في شأنهم لعلموا أنهم ليسوا على شيء، وأنهم لا يستحقّون الاحترام منهم، لأن الذي يتزلَّف إلى الناس بمثل هذه الطرق حريٌّ بأن لا يكون أهلاً للثقة، ولا للكرامة، وما يزيِّن المرء شيء مثل الاستقامة واستواء الباطن والظاهر.

فالمسلم إذًا لا يخلُص من لقب (متعصّب) إلا إذا سمع أن الفرنسيس يحاولون تنصير البربر، فمر بذلك كأن لم يسمع شيئًا، وإلا إذا سمع أن الهولنديين نصّروا مئة ألف - وقد زعم أحد نوّاب البرلمان الهولندي أنهم فازوا بتنصير مليون مسلم من مسلمي جاوة - وهز كتفه قائلاً: أنا لا يهمّني أكان الجاوي مُسلمًا أم مسيحيًا .. هنالك «المسلم » يصير «راقيًا» ويُعد «عصريًّا»، ويصير محبوبًا ويُقال فيه كل خير!

وأمَّا الأوروبي فله أن يبذل القناطير المقنطرة على بث الدّعاية المسيحية بين المسلمين، وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات، وله أن يَحُول بين

المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة، وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الإسلام في بلاد الإسلام، وليس عليه حرج في ذلك، ولا يسلبُه هذا العمل صفة «راقٍ» و«متمدّن» و«عصريّ» وأغرب من هذا أنه لا يسلبه نعت «مدني» و«لا ديني» و«متساهل».

وهؤلاء «المسلمون الجغرافيون» برغم هذه الشواهد الباهرة للأعين، وبرغم ما عملتْه جمهورية فرنسة (اللادينية) في قضية البربر لمَآرب دينية كاثوليكية، وبرغم حماية هولندة لمبشّري الإنجيل في جاوة، وبرغم قرار الحكومة البلجيكية رسميًّا إكمال تنصير أهل الكونغو[١]، وبرغم منع الإنكليز في أوغندة وفي دار السلام - وكذا السودان - من بث الدعاية الإسلامية بين الزنوج، وبرغم أمور كثيرة لا يسعُنا الآن شرحُها، لا يزالون يخدعون المسلمين قائلين لهم: إن أوروبة رفست الدِّين برجلها، وصارت على خطَّة لا دينية، وبذلك قد اتَّسَق لها الرقي ونجحَتْ، ونحن لن نفلح ما دُمنا سائرين على خطّة إسلامية[٢].

---

(١) أهل الكونغو (١٢) مليونًا من النفوس، كانوا جميعهم فتيشيين، فلمّا استولى البلجيكيون على الكونغو قرّروا تنصيرهم، ورأيتُ من عدَّة سنوات برنامج حكومة بلجيكة، فإذا من جملة أركانه تنصير أهل الكونغو، وبالفعل تنصَّر من زنوج الكونغو نحو من مليون ونصف إلى الآن، ولما كان المسلمون قد دخلوا إلى الكونغو من مدّة طويلة، فأقبل الأهالي هناك على الإسلام، حتى بلغ عدد المسلمين في الكونغو (١٥٠) ألف نسمة، خشيت بلجيكة انتشار الإسلام في المستعمرة، وصارتْ تعارض نموَّه فيها، وتطرد المسلمين، وتضيق عليهم، ولم تبال بما في ذلك من الخلل بمبدأ الحرية الدينية، ولا سمعت لومة لائم. (شكيب).

(٢) وقد صدقوا، لكن بمعنى أننا لن نفلح ما دمنا على هذه الخطة التي نكذِبُ بتسميتها إسلامية، وإننا إنما نفلح إذا قمنا بحقوق إسلامنا كما يقومون بحقوق دينهم أو أشد. (رضا).

قد قام ببث هذه السفسطة أُناس في تركية، ووجدوا ممّن تلقّاها بالقبول عددًا كبيرًا، وترى أُناسًا في مصر والشام والعراق وفارس يقولون بها، ويكابرون في المحسوس ولا يُبالون؛ لأنهم يجدون على كل الأحوال من الأغرار من يصدّقهم، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج/٤٦].

أهم أسباب تأخّر المسلمين

[الجهل والعلم الناقص]

مِن أعظم أسباب تأخُّر المسلمين الجهل، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخلّ، فيتقبّل السفسطة قضيةً مسلمةً، ولا يعرف أن يرد عليها.

ومن أعظم أسباب تأخُّر المسلمين العلم الناقص، الذي هو أشد خطرًا من الجهل البسيط؛ لأن الجاهل إذا قيّض الله له مُرْشِدًا عالِمًا أطاعه، ولم يتفلسف عليه، فأمَّا صاحِب العلم الناقص فهو لا يدري، ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما قيل: «ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون». أقول: «ابتلاؤُكم بجاهل، خير من ابتلائكم بشبه عالم».

[فساد الأخلاق ولاسيما الأمراء والعلماء]

ومن أعظم أسباب تأخُّر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن، والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمّة، وبها أدركوا ما

أدركوه من الفلاح، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف، ولله دَرُّ شوقي إذ قال:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فإِن هُمُ ذَهَبَت أَخْلاقُهُم ذَهَبُوا

ومن أكبر عوامل تقهقُر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء - إلا من رحم ربُّك - أن الأمَّة خُلقت لهم، وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رَسَخ فيهم هذا الفكر، حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادّة، بطشوا به عبرة لغيره.

وجاء العلماء المتزلّفون لأولئك الأمراء، المتقلّبون في نعمائهم، الضاربون بالملاعق في حلوائهم، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح، بحجَّة أنه شق عصا الطاعة، وخرج عن الجماعة.

ولقد عَهِد الإسلام إلى العلماء بتقويم أَوَد [١] الأمراء، وكانوا قديمًا في الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسدّدون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طُغيان الدولة، ويهيبون بالخليفة فمَن بعدَه إلى الصواب.

---

(١) أَوَد: اعوجاج. (م).

وهكذا كانت تستقيم الأمور؛ لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحقّقين بالزّهد، مُتحلّين بالورع، متخلّين عن حظوظ الدنيا، لا يهمُّهم أغَضِب الملك الظالم الجَبَّار أم رضيَ؟ فكان الخلائف والملوك يرهبونهم، ويخشَوْن مخالفتهم، لما يعلمون من انقياد العامّة لهم، واعتقاد الأمة إمامتَهم.

إلا أنه بمرور الأيام خلَف مِن بعد هؤلاء خَلْف اتّخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا، فسوّغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم باسم الدِّين خَرْق حدود الدِّين، هذا والعامَّة المساكين مخدوعون بعَظَمَة عمائم هؤلاء العلماء، وعُلُوِّ مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحةً، وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمة تذهب، والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتنمَّر، وكل هذا إثمُه في رقاب هؤلاء العلماء[1].

[الجبن والهلع]

ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجُبْن والهلع، بعد أن كانوا أشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت، يقوم واحدُهم للعشرة، وربّما للمئة من غيرهم، فالآن أصبحوا - إلا بعض قبائل منهم - يهابون الموت، الذي لا يجتمع خوفه مع الإسلام في قلب واحدٍ.

---

(١) وفّينا هذه المسألةَ حقَّها في «المنار» وأهمه مقالة في المجلد التاسع (ص٣٥٧) عنوانها: «حال المسلمين في العالمين، ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين» أنحينا فيها باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم في نصيحة الملوك والأمراء، ويليها آثارٌ عن السلف في ذلك في عدة أجزاء من هذا المجلد. (رضا).

ومن الغريب أن الإفرنج المعتدين لا يهابون الموت في اعتدائِهم هيبة المسلمين إياه في دفاعهم، وأن المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغُها الإفرنج في استحقار الحياة، والتهافت على الهَلَكة في سبيل قوميتهم ووطنهم، ولا تأخذُهم من ذلك الغَيْرة، ولا يقولون: نحن أَوْلَى من هؤلاء باستحقار الحياة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء/ ١٠٤].

[اليأس والقنوط]

وقد انضم إلى الجُبن والهلع اللذين أصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله، فمنهم فئات قد وقر في أنفسهم[١] أن الإفرنج هم الأعلوْن على كل حالٍ[٢]، وأنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وأن كل مقاومة عبث، وأن كل مناهضة خرق في الرأي، ولم يزل هذا التهيُّب يزداد ويتخمَّر في صدور المسلمين أمام الأوربيين، إلى أن صار هؤلاء يُنْصَرُون بالرُّعب، وصار الأقل منهم يقومون للأكثر من المسلمين، وهذا بعكس ما كان في العصر الأوّلِ:

يَرَى الجُبَنَاءُ أن الجُبْنَ حَزْمٌ   وَتِلْك خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ

(١) وَقَرَ في أنفسهم: ثبت وبقي أثره. (م).

(٢) والله يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٩].

[نسيان المسلمين ماضيهم المجيد]

نسي المسلمون الأيَّام السالفة، التي كان فيها العشرون مسلمًا لا غير يأتون من «برشلونة» إلى «فراكسيمة» من سواحل فرنسة، ويستولون على جبل هناك، ويبنون به حصنًا، ويتزايد عددُهم حتى يصيروا مئة رجل، فيؤسّسون هناك إمارة تعصف ريحُها بجنوبي فرنسة وشمالي إيطالية، وتهادِنُها ملوك تلك النواحي، وتخطِب ولاءها، وتستولي على رؤوس جبال الألب، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسة وإيطالية، لاسيّما معبر «سان برنار» الشهير، وتضطر جميع قوافل الإفرنج أن تؤدّي للعرب المكوس لأجل المرور.

تتقدَّم هذه الدولة العربية الصغيرة في بلاد «البيامون» مسافات بعيدة، إلى أن تبلغ سويسرة، وبحيرة «كونستانزة» في قلب أوربة، وتضم القسم العالي من سويسرة إلى أملاكها، وتبقى خمسًا وتسعين سنة مستولية على هذه الديار، إلى أن تتألَّبَ الأمم الإفرنجية عليها، ولا تزال تناجِزُها[١] إلى أن استأصلَتْها، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضَت لا تزيد على ألف وخمسمئة رجل[٢].

(١) تُنَاجِزُها: تُقَاتِلُها. (م).

(٢) يجدُ القارئ تفاصيل هذه الغزوات في كتابنا «غزوات العرب في سويسرة وجنوبي فرنسة وشمالي إيطالية وجزائر البحر المتوسط» المطبوع من خمس سنوات. (شكيب).

شبهات الجهلاء الجبناء وردُّها

من السخفاء من يقول: نعم، قد كان ذلك، لكن قبل أن يخترع الإفرنْج آلات القتال الحديثة، وقبل المدافع والدبابات والطيّارات، وقبل أن يصير الإفرنج إلى ما صاروا إليه من القوّة المبنيّة على العلم.

وهذا القول هو منتهى السخف والسَّفه والحماقة، فإن لكل عصر عِلْمًا وصناعة ومدنيّة تشاكِلُه، وقد كانت في القرون الوسطى علوم تشاكِلُها، كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر. وأمور الخلق كلُّها نسبية، ولقد كانت في العصر الذي نتكلَّم عنه آلات قتال، ومنجنيقات[1]، ودبابات، ونيران مركبة تركيبًا مجهولاً اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرَّشاشات وقنابرُ[2] الديناميت، وما أشبه ذلك في هذه الأيام.

على أنه ليست الدبَّابات والطيّارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم، وتوقد نيران الحميّة في صدور البشر، بل الحميّة والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيّارات والدبَّابات والقنابر. وما هذه إلا مواد صماء، لا فرق بينها وبين أي حجر، فالمادّة لا تقدِر أن تعمل شيئًا من نفسها، وإنما الذي يعمل هو الرُّوح،

---

(١) منجنيقات: جمع «منجنيق»: آلة قديمة من آلات الحصار كانت تُرمى بها حجارة ثقيلة أو كُرَات نارية على الأسوار فتهدمها. (م)

(٢) قنابر: قنابل. (م).

فإذا هبَّت أرواح البشر، وتحرَّكت عزائمهم، فعند ذلك تجد الدبَّابات، والطيَّارات، والرشَّاشات، والغوّاصات، وكل أداة قتال ونزال على طرف الثُّمام.

يقولون: إلا أن هذا ينبغي له العلم الحديث، وهذا العلم مفقود عند المسلمين، فلذلك أمكن الإفرنج ما لم يمكنهم.

والجواب: إن العلم الحديث أيضًا يتوقَّف على الفكرة والعزيمة، ومتى وجدت هاتان وجد العِلْم الحديث، ووجدت الصناعة الحديثة، أفلا ترى أن اليابان إلى حد سنة (١٨٦٨م) كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة، فلمّا أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة، تعلّموا علوم الأوربيين، وصنعوا صناعاتهم، واتّسَق[1] لهم ذلك في خمسين سنة، وكل أمة من أمم الإسلام تريد أن تنهض، وتلحق بالأُمم العزيزة، يمكنُها ذلك، وتبقى مسلمة، ومتمسّكة بدينها، كما أن اليابانيين تعلَّموا علوم الأوربيين كلها، وضارعوهم[2]، ولم يقصِّروا في شيء عنهم، ولبثوا يابانيين، ولبثوا متمسّكين بدينهم وأوضاعهم.

وأيضًا فمتى أرادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدْها؟ إن مِلاك الأمر هو الإرادة، فمتى وُجِدَت الإرادة وجد الشيء المراد.

---

(١) اتَّسق: تمَّ واجتمع. (م).

(٢) ضارعوهم: شابهوهم. (م).

فلو أن أمة من أمم الإسلام أرادت أن تتسلَّح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعِه وأشكاله من ثاني يوم، ولكن اقتناء السلاح ينبغي له سخاء بالأموال، وهم لا يريدون أن يبذلوا، ولا أن يقتدوا بالإفرنج واليابان في البذل، بل يريدون النصرة من دون سلاح وعتاد، أو السلاح والعتاد من دون بذل أموال.

وإذا تغلَّب العدو عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين: أين المواعيد التي وعدنا إيّاها القرآن في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/ ٤٧]، كأن القرآن ضَمِن للمؤمنين النصر من دون عمل ولا كسب، ولا جهاد بالأموال والأنفس، بل بمجرَّد قولنا: إننا مسلمون، أو بمجرّد الدُّعاء والتسبيح، وأغرب من ذلك بمجرَّد الاستغاثة بالأولياء.

فأصبح الكثير من المسلمين، وهم عُزَّل من السلاح الحديث، وهم غير مُجهَّزين بالعلم اللازم لاستعماله، لا يقومون للقليل من الإفرنج المسلَّحين المجهّزين، وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة في أغلب الأحيان على المسلمين. فتوالى هذا الأمر عليهم مدّة طويلةً، إلى أن فقدوا كل ثقة بنفوسهم، واستولى عليهم القُنُوطُ[١]، ودَبَّ فيهم الرُّعب، وألقَوْا بأنفسهم إلى العدوّ، وبعد أن كانوا مسلمين، صاروا مستسلمين، وقد ذُهِلوا[٢] عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا

(١) القُنُوط: اليأس الشديد. (م).
(٢) ذُهِلوا: ذُهِل: نسي وأغفل. (م).

تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران/ ١٣٩-١٤٠].

ونسوا أنه لا يجوز أن يتطرَّق اليأس إلى قلب أحد لا عقلاً ولا شرعًا، ولاسيّما المسلم الذي يخبِرُه دينُه بأن اليأس هو الكفر بعينه، وغفلوا عن قوله تعالى في سَلَفِهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران/ ١٧٣-١٧٤].

فتجدُهم إذا استَنْهَضْتَهُم لمعاونة قوم منهم يقاتلون دولة أجنبية، تريد لتمحوهم، كان أول جواب لهم: أية فائدة من بذل أموالنا في هذا السبيل، وتلك الدولة غالبة لا محالة؟

ولو تأمَّلوا لوجدوا أن الاستسلام لا يزيدُهم إلا ويلاً، ولا يزيد العدو إلا استبدادًا وجبروتًا: سنة الله في خلقه.

ولو فكّروا قليلاً لرأوا أن هذا الشُّح بالمال على إخوانهم الذين في مواطن الجهاد، لم يكن توفيرًا، وإنما كان هو الفقر بعينه، لأن الأمَّة المستضعفة لا تعود حُرّة في تجارتها واقتصاديّاتها، بل يمتص العدو الغالب عليها كل ما فيه عُلالة[1]

---

(١) عُلالة: بقية. (م).

رطوبة في أرضها، ولا يترك للأمّة المستضعفة إلا عظامًا يتمشّشونها[١]، من قبيل (قوت لا يموت) وكثيرًا ما تحصل مَسَاغِبُ[٢]، ويموتون جوعًا، كما يقع كثيرًا في جزائر الغرب والهند وغيرهما، وترى المجاعات واقعة في الهند، ولا يموت منها ولا إنكليزي، وتراها تشتد في الجزائر ولا يموت بها إلا المسلم[٣].

---

(١) يتمشّشونها: يتمشّش العظام: يأكل اللين منها. (م).

(٢) مَسَاغِب: مجاعات. (م).

(٣) ضَنُّ المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذي شلَّ حركتهم السياسية، وفَتَّ في عضد قوميتهم، إلى أن صارت الأمم الغالبة على أمرهم لا تحسبُ لهم أدنى حساب، ولو كانت تحسب لهم حسابًا ما كان الفرنسيس انتزعوا منهم أملاكهم في الجزائر حتى صار (٧٥) في المئة منها ملكًا خالصًا للفرنسيس، وصار ثلث أراضي تونس ملكًا لخمسين ألف إفرنسي، مع أنَّ الأهالي هم مليونان ونصف مليون مسلم، يملكون الثلثين لا أكثر، وأيضًا لما كانت فرنسة ابتزّت أهالي المغرب الأقصى ثمانمئة ألف هكتار، وسلّمتها للمستعمرين الإفرنسيين، ولما كانت فرنسة تنفقُ ثلاثة أرباع ميزانية المغرب المالية على (١٩٠) ألف إفرنسي، وتنفق الربع الباقي على مسلمي المغرب، مع أنهم سبعة ملايين نسمة، ومع أنّ (٨٠) في المئة من ميزانية المغرب هي من أموال المسلمين، كما أثبتنا ذلك بالأرقام، نقلاً عن جريدة الحماية الرسمية، التي لا يقدر الفرنسيس أن يكابروا فيها، وهي ميزانية عدّة سنين، لا سنة واحدة، وقد نقلنا تلك الميزانيات كلّها عن جريدة الحماية الرسمية المطبوعة في الرباط إلى مجلتنا «لاناسيون آراب» [الأمة العربية (La Nation Arabe)]، ودعونا الناس إلى تأمّل هذا الحَيْف الفظيع الواقع على المسلمين، الذين يتمتع الإفرنسيُّ الواحدُ من ميزانيتهم أكثر مما يتمتّع به ستون مسلمًا.
وأغربُ من ذلك أنّ الواحد من يهود المغرب، فضلاً عن الفرنسيس، يستفيد من الميزانية المغربية أكثر من أربعين مسلمًا، وأغرب منه أنّه من هذه الميزانية - التي أربعة أخماسها من جيوب المسلمين - يأخذ المبشّرون والقسوس دعاة النصرانية مئات ألوف من الفرنكات لأجل بثّ المسيحية بين البربر المسلمين، وهذا على نسق إعطاء مبشّري النصرانية في السودان المصري إعانات من أموال المسلمين، فلولا هوان المسلمين على دول الاستعمار، وكون هذه لا تقيم لهم وزنًا ما كانوا يستخفّون بهم إلى هذا الحدّ الأقصى، ولا كان عند الفرنسيس الأربعون مسلمًا بيهوديّ واحد، ولا الستون مسلمًا بإفرنسي واحد.
ولقد تحدّيناهم مرارًا أن يجيبونا عن هذا الظلم الفاحش فما أجابوا بغير الطعن والقذف والتهمة لنا بعداوة فرنسا، كأنّ الإنسان لا يمكن أن يكون صديقًا لفرنسا إلا إذا أهدر في سبيلها جميع حقوق قومه، وهذا من أغرب الغرائب. =

وما السبب في ذلك إلا أن الأجانب قد استأثروا بخيرات البلاد، ولم يتركوا للمسلمين إلا الفقر؛ فقام المسلمون اليوم يعتذرون عن عدم بذل الأموال لمساعدة إخوانهم بعدم وجودها، وهذا صحيح إلى حد محدود، وذلك أنهم بخلوا بها في الأوّل، فجنوا من بخلهم على الجهاد الذُّل والخنوع[١] أولاً، والفقر والجوع ثانيًا، فإن من سنن الله في أرضه أن الذل يردفُه[٢] الفقر، وأن العز يردفه الثراء، والمثل العربي يقول: «مَن عَزَّ بَزَّ[٣]»، والشاعر العربي الإيادي يقول:

لا تَذْخِرُوا المَالَ لِلأَعْدَاءِ إنَّهُمُ ... إن يَظْهَرُوا يَأْخُذُوكُم والتِّلادَ[٤] مَعا
هَيْهاتَ لا خَيْرَ في مَالٍ وَفي نِعَمٍ ... قَد احْتَفَظْتُم بِهَا إن أَنْفُكُم جُدِعَا[٥]

والمتنبي يقول:

فَلا مَجْدَ في الدُّنْيَا لِمَن قَلَّ مَالُهُ ... وَلا مَال في الدُّنيا لِمَن قَلَّ مَجْدُهُ

فالمسلمون عَزَّ عليهم المال ففقدوه، وعزَّت عليهم الحياة ففقدوها، وأبى الله إلا تصديق كلام النبي الموحى إليه ﷺ حيث يقولُ: «يُوشِكُ أَن تَدَاعَى عَلَيْكُمُ

= ولو تأمّلوا قليلاً لعلموا أنَّ نصحنا لهم بإنصاف المسلمين هو نصحٌ عائدٌ إلى مصلحتهم، وأنَّ العدوَّ لا يشيرُ عليهم باستجلاب قلوب المسلمين أبدًا، وإنما يريدها حاميةً بين الفريقين إلى ما شاء الله. (شكيب).

(١) الخُنُوع: الخضوع والذلّ. (م).
(٢) يردفه: يتبعه ويلحقه. (م).
(٣) بَزَّ: غَلَبَ وفاق. (م).
(٤) التِّلاد: المال الأصلي القديم. (م).
(٥) جُدِع: قُطِع. (م).

الأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى القِصَاعِ[1]» قالوا: أَوَ مِن قِلَّةٍ فِينَا يَوْمَئِذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «لا، ولَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السيلِ، يُجعَلُ الوَهَنُ في قُلُوبِكُم، ويُنْزَعُ الرُّعبُ مِن قُلُوبِ أَعْدَائِكُمْ، مِن حُبِّكُم الدُّنْيَا وكَرَاهِيتكُم المَوْتَ».

هذا الحديث كان رواه لي الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي - رحمه الله - يوم لقيتُه في المدينة المنورة منذ خمس وعشرين سنة، ثم قرأتُه في الكتب، واستشهدت به في مقدّمة «حاضر العالم الإسلامي»، وألفاظه تختلف في رواية عن رواية. فالأستاذ صاحب المنار - أمتع الله بطول حياته - هو الأدرى بأصح رواياته[2]، ومعناه ظاهر، وهو: أن المسلمين يأتي عليهم يوم يصيرون فيه مأكلةً، وتمتد إليهم الأيدي من كل جهةٍ.

---

(١) القِصَاع: الأوعية الكبيرة التي تستخدم للأكل، وكانت من الخشب غالبًا، جمع «القصعة». (م).

(٢) الحديث رواه أبو داود في «سننه» والبيهقي في «دلائل النبوة» عن ثوبان مرفوعًا بلفظ: «يوشِكُ أنْ تَداعَى عليكُمُ الأُمَمُ كما تَداعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعتها»، فقال قائل: ومِنْ قلّةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال ﷺ: «بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنّكم غُثاءٌ كَغُثَاء السَّيْل، وسينزعَنَّ اللهُ مِنْ صُدور عدوِّكم المهابَةَ مِنْكُم، وليقْذِفَنَّ في قُلوبِكُمُ الوَهْنَ». قال قائل: يا رسول الله! وما الوهنُ! قال: «حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموت».

قوله ﷺ: (تداعى) أصله تتداعى، أي تجتمع، ويدعو بعضها بعضًا لسلب ملككم، كما تتداعى الأَكَلَةُ (وهي جمعُ آكل، كالفَعَلَة جمع فاعل) إلى قصعة الطعام. و(الغُثاء) بالضم ما يحمله السيلُ ويلقيه من الزَّبَد والعيدان ونحوها، ويُضرَبُ مثلاً لما لا قيمة له ولا فائدة. و(الوهْن) بالنون: الضعف.

وإنما سأله السائل عن سببه، فأجابه ﷺ بأنَّ سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الخسيسة، وإيثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقيقة، وإعلاء كلمة الله، وكراهية الموت، ولو في سبيل الحقّ، حرصًا على هذه الحياة الخسيسة.

وقد أوردتُ هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام/ ٦٥].

وأوردتُ قبله حديث ثوبان الآخر، الذي رواه مسلم في «صحيحه» قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أمّتي سيبلغُ ملكُها ما زُوِيَ لي مِنْها، وأُعطيتُ الكَنزين الأحمر =

فهذا العصر الذي نحن فيه هو ذلك اليوم، وأن المسلمين لا يكون عيبهم يومئذ قلّة العدد، بل يكون عددهم كثيرًا، وإنما لا تغنيهم كثرتهم شيئًا؛ لأن الكثرة بنفسها لا تُفيد إن لم تقترن بجودة النوع، والكمية لا تُغني عن الكيفية[١]، وعلّة العلل في ضعف المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل، صريح ذلك في قوله ﷺ: «مِن حُبِّكُم الدُّنْيا وكراهِيتِكُم المَوْتَ»[٢].

= والأبيضَ، وإنّي سألتُ ربّي أنْ لا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ عامّة، وأن لا يسلِّطَ عليها عدوًّا مِنْ سِوَى أنفسِهم، فيستبيحَ بيضتَهم (أي ملكَهم وسلطانَهم ومقرّ قوّتهم) وإنَّ ربّي قال لي: يا محمّد إذا قضيتُ قضاءً فإنّه لا يُرَدُّ، وإنّي أعطيتُكَ لأمّتِكَ أن لا أُهلكهم بسَنَة عامّةٍ (أي قحط) وأنْ لا أسلِّطَ عليهم عدوًّا مِنْ سِوَى أنفسِهم، فيستبيحَ بيضتَهم، ولو اجْتَمَعَ عليهم مَنْ بأقطارِها - أو قال مِنْ بين أقطارِها - حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِكُ بعضًا، ويَسْبِي بعضُهم بعضًا»، ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النَّسائيّ بزيادةٍ على رواية مسلم هذه، وكلا الحديثين من أعلام النبوّة، التي ظهر بها صدقه ﷺ بعد قرون من وفاتِه وَرَفْع رُوحِه إلى الرفيق الأعلى، فما ذهبَ شيءٌ مِنْ مِلْك المسلمين إلى أيدي الأجانب إلا بخذلان بعضهم لبعض، ومساعدتهم للأجانب على أنفسهم، وفي هذه الرسالة للأمير شكيب بعضُ الشواهد من مسلمي هذا العصر على ذلك، وراجع الموضوع بتفصيله في تفسير الآية المشار إليها في تفسير المنار: ٧/٤٩٠-٥٠١. (رضا).

(١) عدد المسلمين اليوم لا يقلّ عن ثلاثمئة وسبعين مليونًا، وقد يناهز الأربعمئة مليون، فيا لها من قوّة لو كان جميعهم رجالاً كالرّجال المتغلّبين عليهم. (شكيب).

(٢) نعم يخشى المسلمون دول الاستعمار فيطيعونها، حتى على آبائهم وأبنائهم، وأعزّ الناس لديهم، وأغلى الأمور عليهم، وعلى دينهم، ووطنهم، وقوميتهم، وثقافتهم، وإن سألتهم عن أسباب هذه الطاعة العمياء قالوا لك: إنّنا إنْ لم نطعهم أهلكونا، ونحن لا قِبَلَ لنا بمقاومتهم، ونسوا أنّهم عندما تقذف بهم دول الاستعمار في حروبها، يلاقون فيها الموت الذي لم يكونوا ليلاقوا أعظم منه لو كانوا عصوها ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة/ ٨].

ولعمري إنَّ تعليل هذه الحالة الرُّوحية التي نجدها عند المسلمين الخاضعين لدول أوربة المستعمرة ليتعذَّر على نُطُس أطباء الاجتماع جميعًا، إذ لا يمكنُ أن يعقل صنفان من الموت:

أحدهما: مرُّ المذاق، لا تقوى على مواجهته النفس، وهو الموتُ في مقاومة الأجنبي المتغلِّب.

والثاني: مقبول الطعم، سهل الاقتحام، وهو الموت في مقاتلة عدوّ ذلك المتغلب.

لا جرم أنَّ هذه حالة رُوحية شاذّة، لا تفسَّر ولا تعلَّل إلا بالمرض، وعدم اعتدال المزاج، وكون الرُّعب المستمرّ الذي أوقعه في قلوبهم الأجنبيُّ المتغلِّب انتهى بأن أوجد في نفوسهم هذه الحالة الغريبة، التي لم أجدْ لها =

ومن المعلوم أن الإفراط في حب الدنيا يحرم الإنسان التمتُّع بها، وأن الغُلو في المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرّض للهلاك[(١)]، هذه من سنن الله

= شبيهًا في التاريخ، إلا ما كان منهم يوم زحف التتار المغوليين إلى بلاد الإسلام، ونسفوا تلك الحضارات الزاهرة، التي كانت في تركستان، وإيران، والعراق، وذبحوا الملايين من أهلها ذبح الشياه، ودمّروا بغداد دار الخلافة، وأهلكوا الخليفة المستعصم العباسي تحت أرجل الفيلة، وجعلوا من جماجم القتلى أكامًا عالية، فوصل الرعب بقلوب المسلمين إلى أن صار المغولي الواحد يدخل على المئة منهم، فيقتلهم جميعًا، وأسلحتهم في أيديهم، ولا تحدّثهم نفوسهم بأدنى مقاومة، ولا يُقال لمثل هذا: إنّه مجرَّد انكسار قوى معنوية، بل هو أبعد مدًى من هذا بكثير، فإنَّ انكسار القُوَى المعنوية لا يسلبُ المغلوبَ كلَّ آثار النشاط للمقاومة، وإنما كان ذاك مرضًا زاغت به الطبائع البشريَّة عن مركزها، وعتهًا استولى على العقول، وجرّدها من خواص الإدراك.

وقد حدَّث أحد المؤرّخين برواية غريبة عن رجل شهد تلك الوقائع بعينه فقال ما معناه: فررت من التتار، فساقني القدر إلى بيت وجدت فيه ثمانية عشر رجلاً، كلُّهم تخبّؤوا فيه، لعلَّهم ينجون من الموت، فبينما نحن جالسون، إذ دخل علينا أحد التتار، فرآنا جميعًا، وعلى وجوهنا غبرة الموت، ولم يكن معه سلاح يقتلنا به، فقال لنا: ابقوا هنا حتى آتي بسكين وأذبحكم، ومضى ليأتي بالسكين، فلمّا ذهب، قلت للجماعة: ماذا تنتظرون؟ قالوا: لا ننتظر شيئًا سوى الموت، قلت لهم: كيف ننتظر الموت من يد رجل واحد، ونحن عصبة (١٩) رجلاً؟ قالوا: ماذا تريد أن نصنع؟ قلت: نقتله. قالوا: لا تمتدُّ أيدينا إليه لأننا نخاف. قلت: مِمَّ تخافون؟ إن كانَ خوفكم من الموت، فهو قاتلكم على كلّ حال. قال: وما زلت أشجّعهم إلى أنْ أقتنع بكلامي اثنان منهم لا غير، فلمّا رجع المغولي وبيده السكين الذي يريد أن يقتلنا به، هجمنا عليه نحن الثلاثة، ونزعنا السكين من يده، وقتلناه به، وخرجنا ونجونا.

هذا وبقي المسلمون في رُعب من التتار غير ممكن التعديل، إلى أن خرجَتْ إليهم العساكر المصرية في زمن الملك قطز، فتلاقى الجمعان في عين جالوت من فلسطين، وانهزم التتار هزيمة شنيعة، ثابتْ بعدها عزائم المسلمين إليهم، وأخذوا يَفْتِكون بالتتار، وصار هؤلاء عندهم كسائر الناس، ولو لم يدخل التتار في الإسلام لكانَ المسلمون أبادوهم.

وخلاصة القول: إنَّ المسلمين كلّما آثروا السلامة ازدادوا موتًا، وكلما احتقروا الحياة ازدادوا حياةً، وإلى هذا أشار الله تعالى في كتابه الكريم حين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة/ ٣٨-٣٩]. (شكيب).

(١) إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة/ ١٩٥]، أي: إنَّ عدم الإنفاق في سبيل الله هو التهلكةُ بعينها، وقد أصابت المسلمين تهلكةُ عدم الإنفاق، وصدق فيهم ما حذّرهم الله منه (شكيب).

في خلقه، أو من النواميس الطبيعية، كما يُقال في هذا العصر، فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله، ويأمر المسلم أن يثبت ولا ييأس، وأن يصبر ولا يتزلزل، مهما أصيب، وتراه يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٦].

هكذا يريد الله المسلمين أن يكونوا، ليكون المسلمون هكذا بصريح نص القرآن، فكيف يَسْتَنْجِزُون[1] الله عِدَاته[2] بالنصر والتَّمكين، والسعادة والتأمين؟

ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين وعمل كل منهما

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم، فكما أن آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، من دون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغيِّر شيئًا، ولا ترضَى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي، ظنًّا منهم بأن الاقتداء بالكفّار كفر، وأن نظام التعليم الحديث مِن وَضْع الكُفّار.

---

(١) يَسْتَنْجِزُون: يطلبون تحقيق رغباتهم التي وُعِدوا بها. (م).

(٢) عِدَاته: ما وعد به. (م).

فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد؛

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يُفرنِج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مقوّماتهم ومشخّصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوي، الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيدًا، فيذوب فيه، ويفقد هُويته.

وهذا الميل في النفس - هو إنكار الإنسان لماضيه، واعترافُه بأن آباءه كانوا سافلين، وأنه هو يريد أن يبرأ منهم - لا يصدر إلا عن الفَسْل[١] الخسيس، الوضيع النفس، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل، فيسعى هو في إنكار أصل أُمّته بأَسْرها، لأنه يعلم نفسَه منها بمكان خسيس، ليس له نصيب من تلك الأصالة، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية، التي جعلت في كل أمّة ميلاً طبيعيًّا للاحتفاظ بمقوّماتها ومشخّصاتها من لغة، وعقيدة، وعادة، وطعام وشراب وسكنى، وغير ذلك، إلا ما ثبت ضررُه[٢].

محافظة الشعوب الإفرنجية على قوميّاتها

فلننظر إلى أوربة - لأنها اليوم المثل الأعلى في ذلك - فنجد كل أمّة فيها تأبى أن تندمج في أمّة أُخرى، فالإنكليز يريدون أن يبقوا إنكليزًا، والإفرنسيس

(١) الفَسْل: الرديء الفاقد المروءة. (م).

(٢) قال المستر شمبرلين ناظر خارجية إنكلترة سابقًا: نحن الإنكليز أمّة تقليديّة محافظة على القديم، لا نرضى بتبديل شيء من أوضاعنا إلا إذا ثبت ضرره، ولم يبق مناص من تغييره. (شكيب).

يريدون أن يبقوا إفرنسيسًا، والألمان لا يريدون أن يكونوا إلا ألمانًا، والطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طليانًا، والروس قُصارى همّهم أن يكونوا روسًا، وهلم جَرًّا.

ومما يزيد هذا المثال تأثيرًا في النفس أن الإيرلنديين مثلاً أمة صغيرة مجاورة للإنكليز، وقد بذل هؤلاء جميع ما يتصوّره العقل من الجهود ليدمجوهم في سَوَادِهم[1] مدة تزيد عن سبعمئة سنة، فأبوا أن يصيروا إنكليزًا، ولبثوا إيرلنديين بلسانهم وعقيدتهم، وأذواقهم، وعاداتهم.

وفي فرنسة نفسها تأبى أمة «البريتون» إلا أن تحافظ على أصلها.

وفي جنوبي فرنسة جيل يُقال لهم: «الباشكنس» احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط، ثم تجاه العرب، ثم تجاه الإسبان، ثم تجاه الفرنسيس، وجميعهم مليون نسمة، وهم لا يزالون على لغتهم وزيِّهم وعاداتهم، وجميع أوضاعهم.

و«الفلمنك» يأبَوْن أن يجعلوا اللغة الإفرنسية لغتهم، والثقافة الإفرنسية ثقافتهم، ولم يزالوا يصيحون في بلجيكة، حتى اضطرت دولة بلجيكة إلى الاعتراف بلغتهم لغة رسمية.

وفي سويسرة ثلاثة أقسام: القسم الألماني، وهو مليونان وثمانمئة ألف، والقسم المتكلِّم بالطليانية وهو أكثر قليلاً من مئتي ألف، والقسم المتكلِّم

---

(١) سَوَادِهم: عَوَامِّهم. (م).

بالإفرنسية، وهو ثمانمئة ألف، وكل قسم منها محافظ على لغته وقوانينه ومنازعه، مع أنهم كلُّهم متّحدون في مصالحهم السياسية، وهم يعيشون في مملكة واحدة.

وإن الدانمارك وبلاد الإسكنديناف وهولندة فروع من الشجرة الألمانية، لا مراء في ذلك، لكنهم لا يريدون الاندماج في الألمان، ولا العدول عن قوميّاتهم.

وبقي «التشيك» مئين من السنين تحت حكم الألمان، وبقوا تشيكًا، واستأنفوا بعد الحرب العامّة استقلالهم السياسي، بعد أن حفظوا لسانهم واستقلالهم الجنسي مدّة خمسة قرون.

وقد هذَّب الألمان «أمة المجر»، وعلّموهم ورقّوهم، ولكنهم لم يتمكَّنوا من إدماجهم في الألمانية، فتجدهم أحرص الأمم على لغتهم المغولية الأصلية، وعلى قوميتهم المجرية.

ولبثت روسية العظيمة أكثر من مئتين إلى ثلاثمئة سنة تحاول إدخال بولونية في الجنس الروسي، وحَمْل البولونيين على نسيان قوميّتهم الخاصَّة، بحجّة أن العِرْق السلافي يجمع بين البولونيين والروس، ففشلت جميع مساعيها في إدماج البولونيين فيها، وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمة مستقلة في كل شيء، وذلك لأنهم لم يتخلَّوا طرفَة عين عن قوميتهم.

وليس من العجيب أن لا تريد أمة عددها (٣٠) مليونًا الاندماج في غيرها، ولكن «الأستونيين» وهم مليونان فقط، انفصلوا عن روسية، ولم يقبلوا الاندماج

فيها، وأحيوا استقلالهم ولسانهم المغولي الأصل، وجعلوا له حروفًا هجائية، ومثلهم أهالي «فنلندة» المنفصلون عن روسية أيضًا.

وقد خابت مساعي الروس في إدماج «الليتوانيين» من هذه الأمم البلطيقية في الجنس الروسي، وانتقضوا بعد الحرب العامة (١٩١٤- ١٩١٨م) أمة مستقلة كما كانوا مستقلّين قوميًّا، وجميعُهم أربعة ملايين، وأقل منهم جيرانهم الليتونيون[1] الذين هم مليونان لا غير، ومع هذا فقد انفصلوا بعد الحرب، وأسّسوا جمهورية كسائر الجمهوريات البلطيقية، لأنهم من الأصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم.

وقد عجز الرُّوس من جهة كما عجز الألمان من جهة أخرى عن إدخال هذه الأقوام في تراكيبهم القوميّة العظيمة؛ لأن كل شعب مهما كان صغيرًا لا يرضى بإنكار أصله، ولا بالنزول عن استقلاله الجنسيّ.

وقد حفظ «الكرواتيون» استقلالهم الجنسي مع إحاطة أمّتين كبيرتين بهم هم اللاتين والجرمان.

وحفظ «الصربيون» استقلالهم الجنسي مع سيادة الترك عليهم منذ قرون.

---

(١) ليتونيا هي غير ليتوانيا، وكلتاهما من الأمم التي انفصلت عن روسية بعد الحرب العامة (١٩١٨م) لاختلاف جنسها عن جنس الروس. (شكيب).

ولم يزل «الأرناؤوط» أرناؤوطًا منذ عهد لا يُعرف بدؤه، وهم بين أمتين كبيرتين اليونان والصقالبة، أي: السلاف!

وكذلك «البلغار» أبوا إلا أن يبقوا بلغارًا فيما بين الروم والسلاف واللاتين، ثم جاءهم الترك، فتعلّموا التركية، لكنهم بقوا بلغارًا.

ولا أريد أن أخرج في الاستشهاد عن أوربة، لأني إن خرجت عن أوربة قالت تلك الفئة الجاحدة: نحن لا نريد أن نجعل قدوة لنا أممًا متأخّرة مثلنا.

فالأمم التي استشهدنا الآن بها كلُّها أوربية، وكلُّها متعلّمة راقية، وكلُّها ذوات بلدان ممدَّنة منظّمة؛ وكلُّها عندها الجامعات، والأكاديميات، والجمعيات العلمية، والجيوش، والأساطيل... إلخ.

العبرة للعرب وسائر المسلمين بِرُقي اليابانيين

ولكني أخرج من أوربة إلى اليابان فقط، لأن رقي اليابان يضارع الرقي الأوربي، وقد تم لليابان كما تم رقي أوربة للأوربيين، أي في ضمن دائرة قوميّتهم، ولسانهم، وآدابهم، وحريّتهم، ودينهم، وشعائرهم، ومشاعرهم، وكل شيء لهم.

فأنقل إلى القرّاء العرب فِقْرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل أوربي سائح في اليابان، وظهرت في جريدة «جرنال دوجنيف» بتاريخ ٢٠ أكتوبر - تشرين الأول (١٩٣١م) فإنه يقول: «إن الياباني يحب الفن قبل كل شيء، وإن

رأيته ساعيًا في كسب المال فلأجل أن يُلَذِّذ بالمال أهواءه المنصرفة إلى الحسن والجمال، وقد انتقش في صفحة نفسه الشعور القومي الشديد، عدا الميل إلى الجمال؛ لأنه يفتخر بكون اليابان في مدّة ستين سنة فقط، صارت من طور أُمَّة من القرون الوسطى، إقطاعية الحكم، إلى أمّة عظيمة من أعظم الأمم، ومّما لا ريب فيه أن الديانة اليابانية هي ذات دور عظيم في سياسة اليابان (ليتأمّل القارئ) وهي في الحقيقة فلسفة مبنيّة على الاعتراف بكل ما تركه القدماء لسلائلهم.

فالياباني العصري قد ائتلف مع جميع احتياجات الحياة العصريّة، لكن مع حفظ الميل الدائم إلى الرّجوع إلى ماضيه، ومع التمسّك الشديد بقوميّته، غير مجيب نداء التفرنج (وفي الأصل التغرّب Occidentalisme) الذي لا يريد الياباني أن يأخذ منه إلا ما هو ضروري له، لأجل مصارعة سائر الأمم بنجاح، ولا شك أن هذا مثال فريد في تاريخ أمم الشرق الأقصى».

ثم يقول: «كان اليابانيون يكرهون الأسفار إلى البُلدان البعيدة، ويحظرون دخول الأجانب إلى بلادهم، ولكن هذا المنع قد ارتفع بعد النهضة العصرية، وتلافت[1] اليابان ما فات بشكل مدهش، والنتائج هي أمامنا، إلا أن الماضي لا يزال عند اليابانيين مقدَّسًا معظَّمًا في جميع طبقاتهم، لأنه في هذا الماضي المقدَّس يجد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم الحاضرة، فتراهم يكافحون بوسائل المدنية الحديثة التامّة، التي لا سبيل إلى الحياة من دونها في أيامنا هذه، لكن ينبذون

(١) تلافت: تَدارَكت. (م).

كل تغرّب، بمجرّد ما يجدون أنفسهم في غنًى عنه، ويعودون مع اللذة إلى شعورهم القومي الخالص، الذي به يعتقدون أنهم الأعلون.

وهناك هياكل «شنتو» ومعابد «زن» و«الهياكل البوذية» وهي مكرّمة، مُعظّمة، مخدومة بأشد ما يمكن من الحماسة الدينية والإيمان الثابت، كما كانت منذ قرون.

والحق أن هذا الاحترام الشديد الذي يشعر به اليابانيون لقديمهم ولمعبوداتهم هو الذي قام عندهم حصنًا منيعًا دون المبادئ الشعوبية، والأفكار الشيوعيّة المضرّة».

ومنذ بضع سنوات ظهر في فرنسة تأليف جديد عن اليابان للمركيز لامازلبير (La Mazeliere) قد أطنبت الجرائد في وصفه، ونشرت عنه جريدة «الديبا» مقالاً رنانًا، فنحن نوصي القرّاء الذين يهمّهم أن يعرفوا كيفيّة ارتقاء اليابان - وهو موضوع في غاية الجلالة، لما فيه من الاستنتاج لسائر بلاد الشرق - بمطالعة هذا الكتاب، الذي لا يمكن أن ينسب إلى مؤلّفه التعصّب لليابان، على أنني رأيتُه في الجملة مطابقًا لتواريخ ألّفها علماء يابانيون متخصّصون في التاريخ، وهذه التواريخ مترجمة من اليابانية إلى الإفرنسية.

ولابد لي في هذه العجالة من نقل بعض فِقَر من تاريخ «لامازلبير» المذكور، قال في أثناء الكلام على تمدّن اليابان العصري، وخروج هذه الأمة من عزلتها

القديمة ما يلي: «فبدأت اليابان تستعير من أوربة وأمريكة قسمًا من مدنيتهما المادية، ومن نظامهما العسكري، ومن مباحث تعليمهما العام، ومن سياستهما المالية، فكان المجدّدون يجتهدون في أن يقتبسوا من كل شعب ما يرونه الأحسن عنده، فكان ذلك مشروع تجديد وهدم وإعادة بناء، وظهرت آثار ذلك في جميع مناحي الحياة اليابانية».

ثم تكلَّم على الحرب اليابانية الصينية، وانتهى إلى قوله الذي نترجمه ترجمة حرفية: «إن ظفر اليابان بالصين لم يُثْبِت علو الأفكار والمبادئ العلمية التي أخذتها اليابان عن الغرب وكفى، بل أثبت أمرًا آخر، وهو أن شعبًا آسيويًّا بمجرَّد إرادته وعزيمته عرف أن يختار ما رآه الأصلح له من مدنية الغرب (تأمل جيدًا) مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته». اهـ.

وقبلاً كنت نشرت في الجرائد - وما نشرتُه لم يكن إلا نقطة من غدير - خلاصة الحفلات التي أقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين، وكيف استمرَّت مراسم هذا الاحتفال مدَّة شهر، وكانت بأجمعها دينية، وكيف أن «الميكادو» هو كاهن الأُمَّة الأعظم، وكيف أنه من سلالة الآلهة (الشمس)، وكيف اغتسل في الحمّام المقدّس المحفوظ من ألفي سنة، وكيف أكل مع الآلهة الأرز المقدّس، الذي زرعته الدولة تحت إشراف الكهنة، حتى يكون تام القدسية

لا شبهة فيه، وكيف كان ثمة في الحفل ستمئة ألف ياباني، وكلّهم يهتفون ليحيا «الميكادو» عشرة آلاف سنة إلى غير ذلك.

لماذا لا نسمّي اليابان وأوربة رجعية بتديّنهما؟

فلماذا - يا ليت شعري - تتقدّم اليابان هذا التقدّم السريع المدهش، وتصير هذه الأمة أمة عصرية، يُضرَب برقيّها المثل، وهي تضرب بأعراقها إلى عقائد وعادات ومنازع مضى عليها ألفا سنة، ويكون إمبراطورُها هو كاهنها الأعظم، ولا يُقال عنها: رجعية ومرتجعة وارتجاعية ومتأخّرة ومتقهقرة؟

فإن كانت اليابان رجعية فمرحى بالرجعية.

ولماذا كان ملك إنكلترة وإمبراطور الهند السيد على (٤٥٠) مليون آدمي في الأرض من البيض والسمر، والصفر والحمر، والسود، هو رئيس الكنيسة الأنكليكانية، ومجالسه النيابية تبحث في جلسات عديدة في قضية الخبز والخمر، هل يستحيلان بمجرَّد تقديس القسيس إلى جسد المسيح ودمه فعلاً، دون أدنى شك، أم ذلك من قبيل الرمز والتمثيل[1].

---

(١) لم يحدِّث التاريخ عن مسألة من مسائل إنكلترة الداخلية أخذت في الأهمية الدور الذي أخذته قضية (الأفخاريستا) وهي قضية تحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح.
وأصل هذه العقيدة ما رواه الإنجيل من أنَّ السيد المسيح عليه السلام قبل صعوده إلى السماء تعشّى مع تلاميذه وودَّعهم، وبينما هو على المائدة، تناول لقمة من الخبز، وقال: كلوا، هو ذا جسدي، وشرب جُرْعةً من الخمر=

ولا يُقال عنه: إنه رجعي، ولا يقال عن دولته العظمى: إنها متأخرة أو

= وقال: اشربوا هو ذا دمي. فتكوَّنت من هذه الكلمات في النصرانية عقيدة معناها أنَّ الخبز والخمر يستحيلان إلى جسد الربّ تمامًا، وحقيقةً لا مجازًا.

ولما كان القسيس عندهم هو خليفة المسيح، كان لابدَّ له كلَّ يوم عند التقديس في الكنيسة أن يتناول لقمة من الخبز، ويشرب رشفة من الخمر، وهو يتلفَّظ بنفس الكلمات التي تفوّه بها المسيح عليه السلام في أثناء عشائه مع الحواريين. فمتى فعل ذلك تحوَّل هذا الخبز وهذا الخمر إلى جسد الربّ حقيقة لا مجازًا، ولذلك يوضع هذا الخبز - ويسمّونه القربان - في حُقٍّ ثمين فوق المذبح من الكنيسة، ويسجدون له، وذلك باعتبار أنَّ هذا القربان هو الإله نفسه، ويسمُّون وجود الإله فيه (الحضور الحقيقي) وبالإفرنسية (Présence réelle) وهذا من أعظم الأسرار المقدَّسة عندهم.

وإذا أشرف المريض على الموت جاء القسيس، وتلقَّى منه الاعتراف بذنوبه، وناوله هذا القربان، فقيل: إنَّه ذهب إلى الآخرة متزوِّدًا بالأسرار الإلهية. وقد كانت هذه العقيدة هي عقيدة المسيحيين جميعًا، ولا تزال عقيدة أكثرهم إلى اليوم.

إلاّ أنّه عندما جرى الإصلاح البروتستانتي تغير الاعتقاد عند أتباعه بقضية الحضور الحقيقي، وباستحالة الخبز والخمر، اللذين يقدِّس عليهما القسيس إلى جسد الربّ ودمه حقيقة لا مجازًا، وقال البروتستانتيون: إنَّ هذا مجازٌ لا حقيقة، وإنَّه مجرّد رمز وتذكار، وعدلوا عن وضع القربان فوق المذبح، والسجود له باعتبار أنّه هو الإله بذاته، وصاروا في كنائس البروتستانت يجعلون هذا القربان في تجويف خاصّ به من الحائط.

ولكنّ الكنيسة الأنكليكانية (أي الكنيسة العليا في إنكلترة)، لم يتفق رأيها في قضية القربان، فحزب اليمين منها كان باقيًا على عقيدته الأصلية، وهي أنَّ الخبز والخمر يستحيلان بتقديس الكاهن إلى جسد الرَّب حقيقة لا مجازًا، وحزب الوسط مع اليسار كانا يقولان: إنَّ كلمات السيد المسيح هذه لم تكن إلا رمزًا، وإنَّه لا يمكن أن يتحوَّل الخبز والخمر تحت تقديس الكاهن إلى جسد الربّ ودمه، واعتمدوا في رفض العقيدة الكاثوليكية على (كتاب الصلاة) الذي هو دستور الكنيسة الأنكليكانية، وهو كتاب وضعه بروتستانتيو الإنكليز لمذهبهم يوم انشقوا عن الكنيسة الرومانية.

ولمّا كانت هذه المسألة مسألة خلافية بين أتباع الكنيسة الأنكليكانية، وقد عمل فيها كلُّ فريق برأيه، وخيف فيها من انشقاق عامٍّ، أمرت الحكومة البريطانية بتأليف مجمع من الأساقفة، تحت رئاسة إمامهم الأكبر رئيس أساقفة «كنتربري» لأجل التدقيق في هذه المشكلة وحلّها على أحد الوجهين.

فانعقد المجمع، وذلك منذ أربعين سنة، ولم يوفَّقْ إلى حلٍّ يرضي الفريقين، وأخيرًا ألحَّت الحكومةُ على هؤلاء الأساقفة بأن يبتّوا في القضية إن لم يكن بالإجماع فبأكثرية الآراء، فحكموا بالأكثريّة، وخالف في الحكم ستة من المطارين، وذلك بأنَّ الخبز والخمر يستحيلان في قدّاس الكاهن إلى جسد المسيح ودمه، وعليه تجب عبادتهما، والسجود لهما، ووضعهما في أعلى المذبح، لا في كوّة حائط الكنيسة. =

متقهقرة، فإن كانت إنكلترة بعد هذا متقهقرة، فيا حبذا التقهقر!

= وبالاختصار رجع أكثرُ المطارين في هذه المسألة إلى عقيدة البابوية، ولمّا كان القانون الأساسيُّ لبريطانية العظمى يوجب أن يكون القول الفصل في جميع هذه القضايا الدينية لمجلس اللوردات، ولمجلس العموم، عملاً بكتاب الصلاة، الذي هو مرجع الأمّة الإنكليزية، أحيل حكم المطارين هذا إلى مجلس اللوردات، وكانت للمناقشات فيه جلسات متعدّدة، بلغت من اهتمام الملأ ما لم تبلغه المناقشات في أيّة مسألة.

وقيل: إنَّ بعض اللوردات ممن بلغ بهم الكِبَرُ عتيًّا قد حُمِلُوا إلى المجلس على الأكفّ، حتى لا يفوتهم سماعُ هذه المناقشات. وأخيرًا أيّد مجلس اللوردات بالأكثرية قرار مجمع الأساقفة، ولم يكن ذلك كافيًا، إذ كان لابدَّ لإمضاء الحكم من قرار مجلس الأمّة، الذي يُقال له: مجلس العموم.

فلمّا جاءت القضية إلى مجلس الأمة، نزع بأكثرية أعضائه عرق العصبية البروتستانتية، وكان في مقدّمتهم ناظر الداخلية البريطانية، فنقضوا قرار مجلس اللوردات، وحكم مجمع الأساقفة، وقرّروا أنَّ الخبز والخمر لا يستحيلان بالبداهة إلى جسد السيد المسيح عليه السلام ودمه، وتوكّؤوا في ذلك على «كتاب الصلاة» الذي هو دستور الكنيسة الأنكليكانية الوحيد، ولم يوافقوا مجمع الأساقفة إلا على زيادة العبارات التي زادها في الدعاء للملك إنكلترة. وعلى أثر هذا القرار من مجلس العموم استعفى رئيس الأساقفة كنتربري من منصبه.

وإنّما أتينا على ذكر هذه الحادثة التي ليست موضوعنا مباشرةً إثباتًا لأمرين:

أولهما: استمساك الأمة الإنكليزية بمبادئها الدينية، وشدّة اهتمامها بهذه المباحث، مع أنها في طليعة الأمم الراقية بلا نزاع.

والثاني: تشدّق مَنْ يقول: إنّ أوربة نبذت الدين ظهريًّا، ومن يقول: إنَّ أوربة فصلت الدين عن السياسة، وأنَّ هذا الفصل كان سبب نجاحها، وأنّه حريٌّ بالمسلمين أن ينهجوا نهجها إن كانوا يريدون لأنفسهم رقيًّا كرقيّ الأوربيين، وسلطانًا في الأرض كسلطانهم، فأين فصلُ الدين عن السياسة هنا؟

وهذا (كتاب الصلاة) هو الذي اعتمد عليه مجلس العموم في نقض قرار مجمع الأساقفة، ثم قرار مجلس اللوردات، وأين فصل الدين عن السياسة وأنت ترى أنّ مسألة دينية بحتة تطرح في مجلس اللوردات ومجلس النواب، ويفصلان فيها، فإنْ لم تكن هاته المسألة دينية فما الديني إذًا؟ وإنْ لم يكن مجلسا الشيوخ والنوّاب مختصين بالسياسة، فما المجالس التي تختصّ بالسياسة بعدهما؟

فليتأمّل القارئ المنصف مدى التضليل الذي يقوم به المضلّلون من «المسلمين الجغرافيين» إما جهلاً وتعاميًا عن الحقيقة، وإما خدمةً للاستعمار الأوربيّ، الذي ليس له غرض أعزُّ عليه من أن يأتي على بنيان الإسلام من القواعد. (شكيب).

ولماذا كانت القارة الأوربية كلُّها مسيحية مفتخرة بمسيحيتها، تتباهى بذلك في كل فرصة، متّحدة في هذا الأمر على ما بينها من عداوات ومنافسات، ولا ننبزها حتى بقولنا: رجعية وارتجاعية.

والحال أن الديانة التي تدين بها أوربة عمرها (١٩) قرنًا. وهذا عهد يصح أن يُقال عنه: قديم وقديم جدًّا.

وهؤلاء اليهود (مهما تُنكر عليهم من الفضائل، فلا نقدر أن ننكر عليهم المقدرة والذكاء، والحس العمليّ، والجد الهائل) لا يزالون يفخرون بتوراة وُجِدَت منذ آلاف السنين، ويشاركُهم فيها المسيحيون.

ولماذا لا نرى أعظم شبّان اليهود رقيًّا عصريًّا، يجاهدون في إحياء «اللغة العبرية» التي لا يُعرف مبدأ تاريخها، لتوغّلها في القِدَم، ولا يُقال عنهم: إنهم رجعيون ومتأخّرون وقهقريون؟!

وقد نشر «وايزمان» رئيس الجمعية الصهيونية حديثًا في جريدة «الماتن» كان من أهم ما فخر به، وأدلى به كمأثرة ينبغي أن تذكرها لهم الإنسانية، هو (أن فلسطين الحديثة تتكلّم اليوم بأجمعها بلغة الأنبياء) يريد بفلسطين الحديثة فلسطين اليهودية، التي قد نشر الصهيونيون فيها اللغة العبرانية القديمة، وأجبروا نَشْأَهم الجديد على أن يتحدّثوا بها، لتكون اللغة الجامعة لليهود.

ومن الذي فعل هذا؟

الجواب: هم اليهود العصريون، الذين هم أشد الناس أخذًا بمبادئ العلم الحديث والحضارة العصرية.

وماذا عساني أحصي من هذه الأماثيل والعِبَر في رسالة وجيزة كهذه؟! ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة/ ٢٦٩].

كل قوم يعتصمون بدينهم، ومقوّمات ملّتهم، ومشخّصات قومهم الموروثين، ولا يُنبَزون بهذه الألقاب إلا المسلمين!

فإنه إذا دعاهم داع إلى الاستمساك بقرآنهم، وعقيدتهم، ومقوّماتهم ومشخّصاتهم، وباللسان العربي وآدابه، والحياة الشرقية ومناحيها، قامت قيامة الذين في قلوبهم مرض .. وصاحوا: لتسقط الرجعية.. وقالوا: كيف تريدون الرقي وأنتم متمسّكون بأوضاع بالية، باقية من القرون الوسطى، ونحن في عصر جديد!

جميع هؤلاء الخلائق تعلّموا، وتقدّموا، وترقّوا، وعلوا، وطاروا في السماء، والمسيحي منهم باق على إنجيله وتقاليده الكنسيّة، واليهودي باق على توراته وتلموده، والياباني باق على وثنه وأرزّه المقدّس، وكل حزب منهم فرح بما لديه.

وهذا المسلم المسكين يستحيل أن يترقّى إلا إذا رمى بقرآنه وعقيدته، ومآخذه ومتاركه، ومنازعه ومشاربه، ولباسه وفراشه، وطعامه وشرابه، وأدبه وطربه، وغير ذلك، وانفصل من كل تاريخه، فإن لم يفعل ذلك فلا حظ له من الرقيّ!!

فهذا ما كان من ضرر الجاحد الذي يقصد السوء بالإسلام والشرق أجمع، ويخدع السُّذّج بأقاويله.

غوائلُ[1] الجامدين في الإسلام والمسلمين

وبقي علينا المسلم الجامد، الذي ليس بأخف ضررًا من الجاحد، وإن كان لا يَشْركُه في الخبث وسوء النيّة، وإنما يعمل ما يعمله عن جهل وتعصُّب.

فالجامد هو الذي مهّد لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنيّة، محتجّين بأن التأخّر الذي عليه العالم الإسلامي إنما هو ثمرة تعاليمه.

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتُلي به المسلمون، لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط، والحال أن الإسلام هو دين دنيا وآخرة، وإن هذه مزية له على سائر الأديان، فلا حصر كسب الإنسان فيما يعود للحياة التي وراء هذه، كما هي ديانات أهل الهند والصين، ولا زهّده في مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الإنجيل، ولا حصر سعيَه في أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هي مدنية أوربة الحاضرة.

---

(١) غَوَائِل: شرور وفساد. (م).

والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها، بحجّة أنها من علوم الكفّار. فَحَرَم الإسلام ثمرات هذه العلوم، وأورث أبناءه الفقر، الذي هُم فيه، وقص أجنحتهم، فإن العلوم الطبيعيّة هي العلوم الباحثة في الأرض، والأرض لا تخرج أفلاذها[١] إلا لمن يبحث فيها[٢]، فإن كُنا طول العمر لا نتكلّم إلا فيما هو عائد للآخرة، قالت لنا الأرضُ: اذهبوا توًّا[٣] إلى الآخرة، فليس لكم نصيب مني.

ثم إننا بحصر كل مجهوداتنا في هذه العلوم الدينية، والمحاضرات الأخروية، جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بإزاء سائر الأمم، التي توجَّهت إلى الأرض، وهؤلاء لم يزالوا يعلون في الأرض، ونحن ننحط في الأرض، إلى أن صار الأمر كلُّه في يدهم، وصاروا يقدرون أن يأفكونا[٤] عن نفس ديننا، فضلاً عن أن يملكوا علينا دنيانا، من ليست له دنيا فليس له دين، وليس هذا هو الذي يريده الله بنا، وهو الذي قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور/ ٥٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة/ ٢٩]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ

---

(١) أفلاذها: كنوزها. (م).

(٢) كان جَدّي الأدنى - رحمه الله تعالى - يقول: إنْ جارَ عليكَ الزمانُ فعليكَ أن تجورَ على الأرض، أي: تلحُّ وتجتهدُ في استخراج خيراتِها. (رضا).

(٣) توًّا: في الحال. (م).

(٤) يأفكونا. يصرفونا. (م).

ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف/ ٣٢]، وقال فيما حكاه وأقرّه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص/ ٧٧]، وعلَّمنا أن ندعوه بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة/ ٢٠١] ... إلخ.

والمسلم الجامد لا يدري أنه بهذا المشرب يسعى في بوار ملّته، وحطّها عن درجة الأمم الأخرى، ولا يتنبّه لشيء من المصائب التي جرَّها على قومه إهمالهم للعلوم الكونية، حتى أصبحوا بهذا الفقر الذي هم فيه، وصاروا عيالاً على أعدائهم، الذين لا يرقبون فيه إلاًّ[1] ولا ذِمَّةً، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة علَّلها بالقضاء والقدر بادئ الرأي، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا، يحيلون على الأقدار.

هذا الخُلق هو الذي حبَّب الكسل إلى كثير من المسلمين، فنجمت فيهم فئة يلقَّبون بـ«الدراويش» ليس لهم شغل ولا عمل، وليسوا في الواقع إلا أعضاء مشلولة في جسم المجتمع الإسلامي.

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الإفرنج يقولون: إن الإسلام جبريّ، لا يأمر بالعمل، لأن ما هو كائن هو كائن، عمل المخلوق أم لم يعمل.

---

(١) إلاًّ: رحمًا وقرابة، أو حلفًا وعهدًا. (م).

آيات العمل في القرآن المبطِلَة لتفسير القدَر بالجبر والكسل

لا شيء أدل على فساد هذا الزعم الإفرنجي من القرآن، الملآن بالحث على العمل، وباستنهاض الهمم، وابتعاث العزائم، ونوط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل، الذي يعمله المكلَّف. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس/ ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة/ ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [البقرة/ ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد/ ٣٣] أي: لا ينقصكم أعمالكم، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات/ ١٤]، (لا يلتكم): من لاتَه يليتُه، أو ولته يلته بمعنى نقصه، أي: لا يبخسكم من أعمالكم شيئًا. وقال تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود/١٥]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود/ ١١١]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف/ ١٩]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران/ ١٩٥]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر/ ٧٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات/ ٦١]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ

وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر/ ١٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل/ ١١١]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل/ ٩٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران/ ٣٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر/ ٧٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ [النحل/ ٣٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف/ ٤٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم/ ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [سبأ/ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف/ ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة/ ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف/ ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة/ ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت/ ٥٥]، إلى غير ذلك مما لا يكاد يُحصى من الآيات التي امتلأ بها القرآن، ومنها ما هو نص في مسألتنا هذه كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى/ ٣٠]، وقوله تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران/ ١٦٥].

إن صاحب السؤال يعلم - وأكثر المسلمين لا يعلمون - أن هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة إيمانًا وإسلامًا، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، إذ تعجَّبوا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أُحد، فرد الله عليهم ببيان السبب، وهو مخالفتهم أمره ﷺ للرماة الذين يحمون ظهور المقاتلة بألا يبرحوا أماكنهم، سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم، فلمَّا انهزم المشركون خالفوا الأمر لمشاركة المقاتلين في الغنيمة، فكر عليهم المشركون، حتى شج رأس النبي ﷺ ... إلخ.

وكلُّها ناطقة بأن الإسلام هو دين العملِ لا دين الكسل، ولا هو دين الاتّكال على القدر المجهول للبشر، كما يقول الدراويش البطّالون: «رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل» كما يزيّن للناس بعض مؤلّفي الإفرنج من أن دين الإسلام دين جمود وتفويض وتسليم، وأن تأخّر المسلمين إنما نشأ عن ذلك.

ولو كان في هذه الدعوة ذرّة ما من الصحة لما نهض الصحابة - أخبرُ الناس بالإسلام - وفتحوا نصف كُرة الأرض في خمسين سنة، ولكن التسليم الذي يتكلَّمون عليه، ويهرفون فيه بما لا يعرفون[1]، إنما هو مقرون بالعمل وبالكدح وبالسعي، وإلا فلا يسمَّى تسليمًا، بل يسمَّى جمودًا، ويعد بطالةً، وهو مخالف للقرآن وللسنة.

---

(١) يهرفون فيه بما لا يعرفون: مَثَل، يُقال لمن يبالغ في مدح الشيء عن جهل به . (م).

وأمّا إذا كان التسليم لله مقرونًا بالعمل؛ فإنه أنفع في الدُّنيا والأخرى، لأن إفراط المرء في الاعتماد على نفسه يورِّطه في البطر إذا نجح، وفي الجزع إذا فشل، والذي يُريده الإسلام إنما هو أن يعقل[١] الإنسان ويتوكَّل، وأن يدبِّر لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشدًا، ويعلم مع ذلك أن ليس كل الأمر بيده، وأن من الأقدار ما لا تدركه الأفكار، وهذا صحيح، ولمّا ذكر النبي ﷺ القَدَر سأله بعض أصحابه: ألا نتكل؟ فقال: «اعمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». رواه البخاري ومسلم.

ومن أغرب الغرائب أن هؤلاء الإفرنج الذين لا يفتؤون[٢] ينعتون الإسلام بالجبرية، وينسبون تأخُّر المسلمين إلى هذه العقيدة - التي كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين - يذهلون عمّا هو وارد في الإنجيل من آيات القضاء والقدَر، التي تماثل ما في القرآن، وقد تزيد عليه، مثل قوله: «لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بإذن أبيكم السماوي»، ومثل آيٍ كثيرة لو أردت استقصاءها لطال المقال.

ولا نجد في الإفرنج الذين هم مغرمون بالعمل، وهائمون وراء الكسب، ومنكرون للقضاء والقدر في الجملة، إلا من يقرأ الإنجيل الشريف، ويقدّسه، ويعجب بمبادئه السامية كما نعجب بها نحن.

---

(١) في قوله (يعقل) هنا تورية لاحتماله معنيين: ظاهرهما تحكيم إدراك العقل في الأمور مع التوكّل على الله، والثاني: عقل الناقة المرادُ به الأخذ بالأسباب مع التوكّل، إذ فيه إشارة إلى حديث الأعرابي المشهور بين الناس، حتى صار مثلاً: «اعقِلْهَا وتَوَكّل» وفي رواية: «قَيِّدْهَا وتَوَكّل» يعني ناقته، فلم يأذن له ﷺ أن يتركها توكلاً على الله تعالى. (رضا).

(٢) لا يفتؤون: لا يزالون. (م).

فما بالهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر؟! وما بالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجبرية؟! ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة/ ٣٧].

وحقيقة الأمر أن كل ما هو وارد في الإنجيل؛ وكل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصودًا به سبق علم الله بكل ما يقع[١]، ولم يكن مقصودًا به نفي الاختيار، والتزهيد في الكسب.

وفي حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك من مواعظ الإنجيل الشريف ما يدل على ما عزاه القرآن الكريم إلى صُحُف إبراهيم وموسى، أي وغيرهما من رسل الله ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ. وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ. وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ. ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم/ ٣٨-٤١].

---

(١) هذا التفسير قول لبعض المتكلّمين، وهو أنَّ تعلّق علم الله بوجود المخلوقات في الأزل هو القضاء، ووجودها على وفق العلم هو القدر، وقال بعضهم: إنَّه تعلّق الإرادة... إلخ. والتحقيق أنَّ القدر والمقدار هو النظام الذي جرت به سنن الله تعالى في التكوين والتدبير، والأسباب والمسببات، كما يُفهَمُ من نصوص الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر/ ٢١]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون/ ١٨]، وقوله في نظام جعل النطفة في الرحم: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات/ ٢٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه/ ٤٠]، وقد حقَّقْنا المسألة في (المنار) و(التفسير) مرارًا. (رضا).

المسلمون الجامدون فتنة لأعداء الإسلام وحجّة عليه

ونعود إلى المسلم الجامد فنقول: إنه هو الذي طرّق[1] لأعداء الإسلام على الإسلام، وأوجد لهم السبيل إلى القالة [2] بحقّه، حتى قالوا: إنه دين لا يأْتلِف مع الرقي العصريّ، وإنه دين حائل دون المدنيّة.

والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدُهم مع المدنيّة، وهم الذين يحولون دون الرقي العصريّ، والإسلام براء من جماداتهم هذه.

إن الإسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد، وجبٌّ[3] للماضي القبيح، وقطع كل العلائق مع غير الحقائق، فكيف يكون الإسلام مِلَّة الجُمود؟ والقرآن هو الذي جاء فيه من قصّة إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ . قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء/ ٥٢-٥٤]، وجاء فيه: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء/ ٧٧ ٧١]، وجاء فيه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ . قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا

(١) طرّق: سَهَّل الطريق. (م).
(٢) القَالَة: قول فاش في الناس خيرًا كان أو شرًا. (م).
(٣) جَبٌّ: مَحْوٌ وإزالَة. (م).

وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف/ ٢٣-٢٤]، وجاء فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة/ ١٧٠]، وجاء فيه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة/ ١٤٢]، وغير ذلك من الآيات الداعية إلى الثورة على القديم إذا لم يكن صحيحًا، ولم يكن صالحًا.

على أن الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يرحّبون بكل جديد لا يعارض العقيدة، ولا تُخشى منه مفسدة. ولا أظن شيئًا يفيد المجتمع الإسلامي يكون مخالفًا للدّين المبني على إسعاد العباد.

أفلا ترى علماء نجد - وهم أبعد المسلمين عن الإفرنج والتفرنُج، وأنآهم عن مراكز الاختراعات العصرية - كيف كان جوابهم عندما استفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود أيّده الله - في قضيّة اللاسلكي والتليفون والسيارة الكهربائية؟ أجابوه أنها محدثات نافعة مفيدة، وأنه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ما يمنعُها.

أفليس الأدنى لمصلحة الأُمّة أن تَقْدِر الدولة على معرفة أي حادث يحدُث بمجرّد وقوعه حتى تتلافى أمره؟ أفليس الأنفع للمسلمين أن يتمكّن الحاج ببضع ساعات من اجتياز المسافات، التي كانت تأخذ أيامًا وليالي.

لقد سألت الشيخ «محمد بن علي بن تركي» من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه في التليفون واللاسلكي فقال لي: هذه مسألة مفروغ منها، وأمر جوازها شرعًا هو من الوضوح بحيث لا يستحق الأخذ والردَّ.

ولم تكن مقاومة الجديد خاصّة بجامدي الإسلام، فقد قاومت الكنيسة في النصرانيّة كل جديد تقريبًا من قول أو عمل، ثم عادت فيما بعد فأجازته. ولما قال «غاليله» بدوران الأرض كفَّرته، ولا يزال يوجد إلى اليوم من أحبار النصارى من يكفِّر كل مخالف لما جاء في «التوراة» من كيفية التكوين، ومن سنتين حُوكم أحد المعلّمين في محاكم إحدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين، ومُنع من التدريس، ولكن هذا لا يمنع سَيْر العلم في طريقه[1].

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون، والمسلم الجامد يحارب كل علم غير العلم الديني التقليدي الذي أَلِفَه، حتى إنه ليحارب من لا يعتد في دينه إلا بالكتاب والسنة، وينسى أن العلوم الطبيعيّة، والرياضيّة، والهندسة، وجر الأثقال، والفَلَك، والطبّ، والكيمياء، وطبقات الأرض، وكل علم يفيد الاجتماع البشري: هي علوم دينيّة، إن لم تكن مباشرة فمن حيث النتيجة[2].

---

(١) وقد تألّف في إنكلترة وأمريكة حزب ديني جديد، أو جمعية للدعوة إلى الإيمان بظواهر «التوراة» في الخَلْق والتكوين وكلّ شيء من غير تأويل (راجع ص ٧٢٣ م٣٠ من المنار). (رضا).

(٢) أي من باب قول العلماء: ما لم يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب، وقد بيّنّا في تفسير ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال/ ٦٠] أنَّ آلات القتال البرية والبحرية والجوية واجبة بنصّ هذه الآية، لأنّها من القوة المستطاعة للمسلمين، كما هي مستطاعة لغيرهم، فليس وجوبها بقاعدة «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» بل بنصّ القرآن ودلالة المنطوق منه، فراجع تفسيرها في تفسير المنار: ١٠/٦١. (رضا).

وكم جرى تدريس هذه العلوم في الأزهر والأُموي، والزيتونة، والقرويين، وقرطبة، وبغداد، وسمرقند، وغيرها عندما كان للإسلام دول كبار وأعاظم رجال، وكم نبغ في الإسلام من عظماء، جمعوا بين الحكمة والشريعة، ونظموا بين الحديث والرياضة، وإن أكبر فيلسوف عربي اشتهر اسمُه في أوربة هو القاضي «ابن رشد» وقد كان من أكابر الفقهاء.

مدنيّة الإسلام

أمَّا زعمُ مَنْ زعمَ أن الإسلام لم يتمكَّن من تأسيس مدنيّة خاصَّة، والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة، فهو خرافة يموِّه[1] بها بعض أعداء الإسلام من الخارج، وبعض جاحديه من الداخل، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوربية، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد.

نحن لا ننكر تأثير الدين في المدنيّة، ولكننا لا نسلِّم بأنه يصح أن يكون لها ميزان، وذلك لأنه كثيرًا ما يضعف تأثير الدين في الأمم، فتتفلَّت من قيوده، وتفسد أخلاقها، وتنهار أوضاعها، فيكون فساد الأخلاق هو علَّة السقوط، ولا يكون الدين هو المسؤول.

---

(١) يموّه: يزوِّر ويُخفي الحقيقة. (م).

وكثيرًا ما تطرأ عوامل خارجيّة غير متنظرة، فتتغلَّب على ما أثّلته[١] الشرائع من حضارة، وتزلزل أركانها، وقد تهدمها من بوانيها[٢]، ولا يكون القصور من الشريعة نفسها.

فتأخُّر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة؛ بل من الجهل بالشريعة، أو كان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي.

ولمَّا كانت الشريعة جارية على حقِّها كان الإسلام عظيمًا عزيزًا، وأي عظمة أعظم ممّا كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلاً.

ومدنيَّة الإسلام قضيَّة لا تقبل المُمَاحَكَة[٣]، إذ ليس من أُمَّة في أوربة - سواء الألمان أو الفرنسيس أو الإنكليز أو الطليان ... إلخ - إلا وعندهم تآليف لا تُحصى في مدنية الإسلام، فلو لم تكن للإسلام مدنيّة حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه، مبنيّة على كتابه وسنته، ما كان علماء أوربة حتى الذين عُرفوا منهم بالتحامل على الإسلام، يكثرون من ذكر المدنيّة الإسلاميّة، ومن سرد تواريخها[٤]، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيّات، ومن تبيين الخصائص التي انفردت بها.

---

(١) أثّلته: أصَّلته. (م).

(٢) بوانيها: أصولها وأركانها. (م).

(٣) المُمَاحَكَة: النزاع والخصام. (م).

(٤) وقد ألّف عُصبة من الأوربيين المستشرقين مَعْلَمةً اسمها «إنسيكلوبيدية الإسلام» وتحامل فيها بعضهم على الإسلام، وبخسوه من أشيائه، ولكنّهم لم يقدروا أن يجحدوا انفراده بمدنيّة خاصةٍ به.

فالمدنيّة الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة، التي يزدان بها التاريخ العام، والتي تغص سجلاّتُه الخالدة بمآثرها الباهرة.

وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة، واستبحار الحضارة[1]، وتناهي الترف والثروة، ما لم تبلغْه مدنيّة قبلَها ولا بعدها إلى هذا العصر، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان، وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها، وكان أهلها نحو نصف مليون.

وكانت دمشق، والقاهرة، وحلب، وسَمَرْقَنْد، وإصفهان، وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام أمثلة تامّةً، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران، وتطاول البنيان، ورفاهة السكان، وانتشار العلم والعرفان، وتأثّل الفنون المتهدّلة الأفنان.

وكانت القيروان، وفاس، وتلمسان، ومراكش في المغرب، أعظم من أن يطاولها مطاول، أو يناظرُها مُناظر، أو أن يكاثرها مكاثر في ممالك أوربة، حتى هذه القرون الأخيرة.

وكانت قرطبة مدينة فذّة في أوربة، لا يدانيها مُدان، وكان عدد سكّانها نحو مليون ونصف مليون نسمة، وكان فيها نحو سبعمئة جامع، عدا المسجد الأعظم، الذي لمّا زُرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قِبَل الحكومة الإسبانيولية: إنه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مُصَلٍّ في الداخل، وثلاثين

(١) اسْتِبْحَار الحضارة: اتساعها وانبساطها. (م).

ألف مُصَلٍّ في الصحن، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفًا من المصلين.

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء، رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمئة متر طولاً في ثمانمئة متر عرضًا، والإسبانيون يقولون: مدينة الزهراء.

وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: إنهم يرجون الإتيان على كشفها كلِّها من الآن إلى خمسين سنة.

وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس، لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الإسبانيول نصف مليون نسمة، ولم تكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوي نصف هذا العدد.

وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدَّهْر إلى اليوم.

هذه لمحة دالّة من مآثر حضارة الإسلام، وغُرر أيامه، وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقًا فوق طبق.

وكم حرَّر المؤرِّخون الأوربيون تحت عنوان «مدنية الإسلام» كتبًا قيّمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار، وإن أشد مؤرّخي الإفرنج تحاملاً على الإسلام لا يتعدَّى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته، وأن يُنكر كونه أبا عُذرتها[1]، فقُصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علومًا، وسبقوا إلى نظريات صارت خاصّة بهم، وغايتهم أن يقولوا: إن المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا، وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب.

وهذا القول مردود عند المحققين، الذين يعرفون للمسلمين علومًا ابتكروها، وحقائق كشفوها، وآراء سبقوا إليها، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه، وما نشروه ونقلوه، ومن استرق شيئًا وقد استرقّه، فقد استحقّه.

وبعدُ؛ فلم نعلم مدنيّة واحدة من مدنيات الأرض إلا وهي رشح مدنيات سابقة، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشريّة، ومجموع نتائج عقول مختلفة الأصول، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الأجناس.

الرد على حُسَّاد المدنية الإسلامية المكابرين

أينسى حُساد الإسلام والمكابرون في عظمة فَضْله، الزاعمون أنه إنما نقل وتعلَّم، وقلَّد واقتدى، وأنه إنما صلَّى وراء غيره: أن الغرب كان غلب على الشرق،

(١) أبا عذرتها: مَنْ اخترعها ولم يسبقه إليها أحد قبله. (م).

وأن المدنية الشرقية يوم ظهر الإسلام كان أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ[١]، وأنه هو الذي جدّدها، وأحيا آثارها، وأقال عثارها؟ وأنها بعد أن كانت قد امّحَت، ولحقت بالغابرين، أبرزَها من أصدافها، وجلاها من بعد أن كانت ملفوفة بغلافها، ونشرها في الخافقين، وبلجها كفلق الصبح لكل ذي عينين، وأضفى عليها لباس الإسلام الخاصّ، ودَبَّجها[٢] بديباجة القرآن، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب، ولا سهل ولا وعر، حتى حمل ذلك كثيرًا من علماء الإفرنج - ممّن لم يعمِه الهوى، ولم يحد في التحقيق عن مَهْيَع[٣] الهدى - على أن اعترفوا بأن مدنية الإسلام لم تكن نسخًا ولا نقَلاً، وإنما هي قد نبعت من القرآن، وتفجَّرت من عقيدة التوحيد.

فأمَّا ما ترجمتْه حضارة الإسلام من كُتب، وما أخذتْه عن غيرها من علوم، وما أفادتْه في فتوحاتها من منازع جميلة، وطرائق سديدة، أخذتْها عن غيرها، فلا يقدح ذلك في بكارتها الإسلامية، ومسحتها العربية، لأن هذا شأن الحضارات البشرية بأجمعها، أن يأخذ بعضها عن بعض، ويكمِّل بعضها بعضًا، فالعلم

---

(١) أخنى عليها: أهلكها بشدائده و«أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ» شطر من معلقة «النابغة الذبياني» يسترجع فيه قصة عربية قديمة، تزعم العرب فيها أن رجلاً اسمه لقمان بن عاديا عاش عُمر سبعة أَنْسُر، وكل نسر عاش ثمانين عامًا، فجعل يأخذ نسرًا نسرًا ليعيش معه؛ فإذا مات أخذ آخر فرباه، حتى كان آخرها «لُبَد» وكان أطولها عمرًا؛ فقيل طال الأبد على لبد. (م).

(٢) دَبَّجها: حسَّنها وجوَّدها. (م).

(٣) مَهْيَع: طريق. (م).

الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف: «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ يَنْشُدُها ولو في الصِّينِ»[١] وهذه من أقدس قواعد الإسلام.

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر أن الإسلام كان له دور عظيم في الدنيا، سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية، وأن هذه الفتوحات قد اتَّسقَت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة، ممَّا أجمع الناس على أنه لم يتّسق لأمّة قبلَه أصلاً.

وكان نابليون الأول لشدّة دهشته من تاريخ الإسلام يقول في جزيرة «سانتة هيلانة»: إن العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غير.

وتأمَّل أيها القارئ في أن قائل هذا القول هو «بونابرت» الذي لم تكن تملأ عينيه الفتوحات مهما كانت عظيمةً.

وتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

فهذا رجل عظيم جدًّا، استعظم حادث العرب، الذي لم يسبق نظيره في التاريخ، وقد بقي دور العرب هو الأوَّل في وقته، ولبثوا وهم المسيطرون في الأرض، لا يُضارِعُهم مضارع، ولا يغالِبُهم مغالب، مدَّة ثلاثة قرون أو أربعة، ثم

---

(١) هذا مضمون حديثين:
أحدهما: «الحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ فحيثُ وجدَها فهو أحقُّ بها» رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، ورواه غيرُه بمعناه مع اختلاف اللفظ.
والثاني: «اطلبُوا العلمَ ولو بالصِّينِ»، وذكره الكاتب في موضعٍ آخر ص٩٥ (١١٣ من هذه الطبعة)، وهناك نذكر من أخرجه (رضا).

أخذوا بالانحطاط، وجعلت ظلالهم تتقلَّص عن البلدان التي كانوا غَلبوا عليها شيئًا فشيئًا، وذلك بفتور الهمم، ودبيب الفساد إلى الأخلاق، ونبذ عزائم الدين، واتّباع شهوات الأنفس.

وأشد ما ابتُلوا به التنافس على الإمارات والرئاسات - ولاسيما بين القيسية واليمانية - مما لولاه لدانت لهم القارّة الأوربية بأجمعها، وكانت الآن عربية كما هو المغرب.

فالمصائب التي حلَّت بالمسلمين هي مما صنعته أيديهم، وممَّا حادوا به عن النهج السويّ، الذي أوضحه لهم القرآن، الذي لمَّا كانوا عاملين بمُحْكم آيِه عَلَوا، وظهروا، وكانت لهم الدول والطوائل[1]، فلمَّا ضعف عملُهم به، وصاروا يقرؤونه بدون عمل، وانقادوا إلى أهواء أنفسهم من دونه، ذهبت ريحهم، وولَّى السلطان الأكبر الذي كان لهم، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم، ثم قصدوا إلى أوساطها، ومازال الأعداء يفتحون من بلدان الإسلام حتى أصبح ثلاثمئة مليون مسلم تحت ولاية الأجانب، ولم يبق في العالم سوى (٧٠) أو (٨٠) مليون مسلم نقدر أن نقول: إنهم تحت ولاية أنفسهم.

ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأُخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم، إذ كانت «بضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ».

---

(١) الطوائل: الكثرة والضخامة من كل شيء. (م).

اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها

كان اليونانيون قبل النصرانيّة أرقى أمم الأرض، أو من أرقى أمم الأرض، وكانوا واضعي أسس الفلسفة، وحاملي ألوية الآداب والمعارف، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة إلى يوم الناس هذا.

وكان الإسكندر المقدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ، أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ، حاملاً للأدب اليوناني، ناشرًا لثقافة اليونان بين الأمم التي غلب عليها، وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الإسكندرية بعلومها وفلسفتها إلا من بقايا فتوح الإسكندر، ثم لم تزل هذه الحالة إلى أن تنصَّرت اليونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل، فمذ دانت هذه الأُمّة بالدين الجديد بدأت بالتردّي والانحطاط، وفقد مزاياها القديمة، ولم تزل تنحط قرنًا عن قرن، وتتدهور بطنًا عن بطن، إلى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية، ولم تعد إلى شيء من النهوض والرُّقي إلا في القرن الماضي، وأين هي مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية؟!

أفيجب أن نقول: إن النصرانيّة كانت المسؤولة عن انحطاط اليونان هذا؟

إن القائلين بأن الإسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بأن النصرانية قد أدّت أيضًا إلى انحطاط اليونان، التي كانت من قبلها عنوان الرقيّ.

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى، التي لا يُذكر معها دولة، ولا يؤبَه من جانب صولتها لصولة، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على المعمور إلى أن تنصّرت لعهد قسطنطين، فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنًى، إلى أن انقرضت أولاً من الغرب، وثانيًا من الشرق، ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئًا من مكانتها الأولى، وبقيت على ذلك مدة خمسة عشر قرنًا حتى استأنفت شيئًا من مجدها الغابر، وما هي إلى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغتْه أيام الوثنية.

أفنجعل تنصُّر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدحرجها عن قمّة تلك العظمة الشاهقة؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون، كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الإسلام، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب.

فإن لسقوط الرومان بعد فُشُوّ[1] الدّين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلِهم بعد أن تقبّلوا دعوة بولس إلى النصرانية أسبابًا وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق، وانحطاط الهمم، وانتشار الخنى والخلاعة، وشيوع الإلحاد والإباحة، ومن هرم الدول الذي يتكلّم عنه ابن خلدون، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية، منضمّة إليها غارات البرابرة من الخارج، فكانت ثَمَّة أسباب قاسرة مؤدّية إلى السقوط، الذي كان لابد منه.

---

(١) فُشُوّ: انتشار وذيوع. (م).

فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث، ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب.

فدعوى بعض المؤرّخين الأوربيين أن تغلّب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها، وذهب بمدنيتها ليس فيه من الصحيح إلا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة، سنة الله في خلقه، وأنه في هَيْعَة[١] هذا التحوّل لابد من اضطراب الأحوال، وانحلال القواعد، واستحكام الفوضى، وإلا فلا أحد يقدر أن يقول: إن الوثنية أصلح للعمران من النصرانية[٢].

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الإسلام، الذين يزعمون أن الشرق كان راتعًا[٣] في بَحَابِح[٤] العمران، فجاء الإسلام، وطمس المدنيات الشرقية القديمة! لولا أن الحقيقة هي كما قدَّمْنا أن المدنيات الشرقية كانت كلها

(١) هَيْعَة: صوت صُراخ الفَزَع. (م).

(٢) علماء المسلمين يعتقدون أنَّ النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم أصلحُ لأنفس البشر من الوثنية الخالصة، ولكنّها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه أوربة وغيرها، لأنّها ديانة مبنيّة على المبالغة في الزهد والخضوع لكلّ حكم دنيوي، والعمران لا يتمُّ ولا يسمو إلا بالسيادة والمُلْك والغنى، ومن قواعد الإنجيل: أنَّ الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة فالغني لا يدخل ملكوت السماوات. ونعتقد أيضًا أنَّ جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حقٌّ، وكان البشر في أشدَّ الحاجة إلى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتوّ، وأنَّ هذا كان تمهيدًا للإسلام الدين الوسط المعتدل، الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة، فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمّن اعترافنا بحقيّة دين المسيح في نفسه، وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له. ومن وظيفتي أن أبيّن هذا في حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان. (رضا).

(٣) رَاتِعًا: متنعّمًا. (م).

(٤) بَحَابِح: سَعَة العيش واللين. (م).

قد انقرضت أو انحطَّت قبل ظهور الإسلام بكثير، وأن الإسلام وحده لا غيره، هو الذي جدَّد مدنية الشرق الدارسة[١]، واستأنف صولته[٢] الذاهبة الطامسة، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر، كبغداد، والبصرة، وسمرقند، وبُخارى، ودمشق، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة، وهلم جرًّا، فإن كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة، فإن الإسلام هو الذي وطَّد بوانيها، وطرّز حواشيها، وحمل السيف بيد والقلم بيد، إلى أبعد ما تصوّره العقل من حدود الأقطار، التي لم يسبق لشرقي أن وَطِئها بقدمه.

فإذا كان الإفرنج الصليبيون من الغرب، وكان المغول أولئك الجراد المنتشر من الشرق، قد تبَّروا[٣] ما علا الإسلام في تلك الممالك، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية واتّباعهم للشهوات، وإمعانهم في الضلالات، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمة، وفقدُهم ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة، قد قضت في الداخل على ما عجز عن تعفيته[٤] العدو من الخارج، فليس الذنب في هذا التقلّص ذنب الإسلام، ولا التَّبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الإفرنج، وجناية ذلك الجراد الزحَّاف من المغول، وإنما هي تَبِعَة المسلمين، الذين رغبوا عن أوامر كتابهم، واشتروا بآياته ثمنًا قليلاً، إلا النادر منهم.

---

(١) الدارسة: التي ذهب أثرها. (م).
(٢) صَوْلته: نفوذه. (م).
(٣) تَبّروا: أهلكوا ودمَّروا. (م).
(٤) تعفيته: إزالته ومحوه. (م).

سبب تأخُّر أوربة واليابان الماضي ونهضتهما الحاضرة

وأيضًا فقد تنصَّرت الأمم الأوربية في القرن الثالث، والرابع، والخامس، والسادس من ميلاد المسيح، وبقيت أُمم في شرقي أوربة في القرن العاشر حتى تنصَّرت، ولم تنهض أوربة نهضتها الحالية التي مكّنتها تدريجًا من هذه السيادة العظمى بقوّة العلم والفن إلا من نحو أربعمئة سنة، أي من بعد أن دانت بالإنجيل بألف سنة، ومنها بعد أن دانت به بسبعمئة سنة، ومنها بثمانمئة سنة... إلخ.

وهذه هي القرون المسمّاة في التاريخ بالقرون الوسطى، ولا نقول: إن الأوربيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، بل نقول: إن العرب كانوا أعلى كعبًا منهم بكثير في المدنيَّة بإقرار مؤرّخيهم، وبرغم أنف «لويس برتران» وأضرابه.

ومن الكتب المخرجة حديثًا الشاهدة بذلك «التاريخ العام» للكاتب الفيلسوف الإنكليزي «ولز» و«تاريخ مدنيات الشرق» لمؤلف إفرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه «غروسه» فالحقيقة التاريخيّة المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع، لم يظهر ما ينقضُها ولن يظهر، وهي: أن العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيذ الأوربيين، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرَّج على العرب تباهى بذلك بين قومه.

أفنجعل هذا التأخُّر الذي كان عليه الأوربيون في القرون الوسطى مدَّة ألف سنة ناشئًا عن النصرانية، التي كانت دينهم الذي يعضّون عليه بالنواجذ[١]؟

نعم إن الأمم البروتستانتية منهم تجعل مصدر هذا التأخُّر الكنيسة البابوية لا النصرانية مِن حيث هي، وتزعُم أن نهضة أوربة لم تبدأ إلا بخروج مارتن لوثر Martin Luther، وجون كالفين John Calvin على الكنيسة الرومانية.

وأما «فولتير» ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفرِّقون كثيرًا بين الكاثوليك والبروتستانت، وعندهم أن جميع هذه العقائد واحدة، وأنها عائقة عن العلم والرقيّ، ولهذا قال «فولتير» تلك الكلمة عندما ذُكِر لديه «لوثر» و«كلفين»، قال: «كلاهما لا يصلح أن يكون حَذَّاء لمحمد»[٢]، يريد أن محمدًا ﷺ بلغ من الإصلاح ما لم يبلغا أدناه، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان فجر أنوار أوربة[٣].

---

(١) يعضون عليه بالنواجذ: يحرصون على الشيء ويتمسكون به. (م).

(٢) ذكر «فولتير» هذه الجملة أمام البرنس «سيندورف» النمسوي الذي صار فيما بعد رئيسًا لوزراء سلطنة النمسة، وعندما دخل بونابرت فيينّة كان هذا البرنس هو رئيس الحكومة فيها، وكان نقله هذه الجملة عن فولتير في أيّام شبابه، عندما اجتمع به في سويسرة، فقيّدها في مذكّراته المحفوظة في خزانة كتب فيينة، وعنها نقلتها جريدة «الطان» ونحن نقلناها عنها. (شكيب).

(٣) ونحن نعتقد هذا، وكان شيخنا الأستاذ الإمام وأذكياء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه، ولكن بمعنى سلبي، وهو أنَّ هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها، وفهمها للدين ورأيها في الدنيا، وكان سبب هذا المذهب ما سرى إلى أوربة عقب الحروب الصليبية بمعاشرة المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين، وعدم سيطرة أحد عليهم فيه، كما بيّنه شيخنا في كتاب «الإسلام والنصرانية». (رضا).

والحق الذي لا نرتاب فيه أن النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الإفرنج المسيحيين مدَّة ألف سنة في القرون الوسطى، بل للمسيحية الفضل في تهذيب برابرة أوربة.

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون، ومنهم من هم على مذهب «بوذا» ومنهم من يُقال لهم: «طاويون»، وكثيرون منهم يتَّبعون الحكيم الصيني «كنفوشيوس».

ولقد مضى عليهم نحو ألفي سنة، ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة، ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم.

ثم نهض اليابانيون من نحو ستين سنة، وترقَّوا وعزّوا، وغَلُظ أمرُهم، وعلا قدرُهم، وصاروا إلى ما صارُوا إليه، ولم يبرحوا وثنيين، فلا كانت الوثنيَّة إذًا سبب تأخُّرهم بالماضي، ولا هي سبب تقدُّمهم الحاضر.

وقد تقاوت اليابان وروسية وتجاربتا، فتغلَّبت اليابان على روسية، مع أن اليابانيين في العدد هم نصف الروس، ولكن ممَّا لاشك فيه أن اليابانيين أرقى من الروس، والحال أن روسية عريقة في النصرانية، واليابان عريقة في الوثنية.

فليترك إذًا بعض الناس جعل الأديان هي المعيار للتأخّر والتقدّم[١].

---

(١) هذا صحيح في جملة الأديان إلا الإسلام، فقرآنه وتاريخه يثبتان أنّه هو سبب تقدُّم أهله حين اهتدوا به، وسبب تأخُّرهم حين أعرضوا عنه، كما بيَّن هذا أمير الكتّاب في رسالته هذه، فأظلمُ الظُّلْم أن يُجْعَل سبب تأخّرهم (رضا).

أفنقول من أجل هذا المثال: إن الإنجيل هو الذي أخَّر روسية عن درجة اليابان، وأن عبادة الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بِضَبْع[1] اليابان حتى سبقت روسية؟

إن لهذه الحوادث أسبابًا وعوامل متراكمة، ترجع إلى أصول شتّى، فإذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شرّ، تغلّبت على تأثير الأديان والعقائد، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرّها، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها.

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدّم اليابان السريع، حتى نبيّن أن اعتقاد عامّتهم (وجود حصان مقدّس يركبه الإله فلان) لم يقف حائلاً دون تقدّمهم، المبني على ما ركّب في فطرتهم من الحماسة، وما أوتوا من الذكاء، وما أورثهم نظام الإقطاع القديم من التنافس في المجد والقوة.

وعندنا أمثلة كثيرة تكاد لا تُحصى في هذا الباب، اجتزأنا منها بما ذكرناه. ولم نكن لنتعرَّض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشّرين، وكثير من الأوربيين على الإسلام، وزعمهم أنه عنوان التأخُّر، وأنه رمز الجمود، وتحدُّثهم بذلك في الأندية والمجامع، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلاّت والجرائد، وقولهم: إن الشجرة تُعَرف من ثمارها، وإن حالة العالم الإسلامي الحاضرة هي نتيجة جمود

(١) بضَبْع: بعَضُد، والمراد: نهضت بها. (م).

الإسلام، وتحجّر القرآن: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف / ٥].

وحسبُك أن المسيو «سان» المقيم الإفرنسي السامي في المغرب - ينشر في العدد الأخير من «مجلة الإحياء» الإفرنسية مقالة يتكلّم فيها على يقظة المغرب بعد «ليل الإسلام»! هكذا تعبيرُه.

فإن كان تأخُّر إحدى الممالك الإسلامية حقبة من الدَّهر يجب أن يُقال فيه: «ليل الإسلام» فكم كان ليل النصرانيّة طويلاً عندما بقيت أوربة المسيحيّة زُهاء[1] ألف سنة، وهي في حالة الهمجيّة، أو ما يقرب من الهمجيّة.

إن إدخال الأديان في هذا المعترَك، وجعلها هي وحدها معيار الترقّي والتردّي، ليس من النَّصَفة في شيء.

أمّا الإسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة، ممّا أجمع على الاعتراف به المؤرّخون شرقًا وغربًا، ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد، كما يزعم المفترون، الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الأوربية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام، وبسط سيادة أوربة على بلدانهم، بل كان السبب في تردّي المسلمين هو أنهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرّد الاسم، والحال أن الإسلام اسم وفعل.

---

(١) زُهاء: ما يقارب. (م).

حثُّ القرآن على العلم

بَاعثٌ للمسلمين على سَبْقِهم لسائر الأمم في الرُّقيِّ

العالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقيّ، واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة، إذا أراد ذلك المسلمون، ووطّنوا أنفسهم عليه، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزمًا، ولن يجدوا لأنفسهم على العلم والفن خيرًا من القرآن الذي فيه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٩]، والذي فيه: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة/ ٢٤٧]، والذي فيه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران/ ٧]، والذي فيه ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [آل عمران/ ١٨]، والذي فيه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت/ ٤٩]، والذي فيه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة/ ١١]، والذي فيه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة/ ١٢٩]، وفيه: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة/ ٢٦٩]، وفيه: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ٥٤]، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

وفيه ما هو خاص بالأمة العربية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة/ ٢].

وقد زعم بعضُهم - ومن جملتهم «سيكار» هذا الذي بالمغرب، وقد ألّف كتابًا في الطعن على الإسلام، وهو الذي يكتب في مجلة «مراكش الكاثوليكية» - أن المراد بلفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني، ولم يكن المقصود به العلم مطلقًا لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم.

وقد أتى «سيكار» من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحق أن يُرد عليه، لما فيه من المكابرة في المحسوس، وكل من تأمَّل مواقع هذه الآيات المتعلّقة بالعلم وبالحكمة وغيرها، مما يحث على السير في الأرض، والنظر والتفكير، يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على إطلاقه، متناولاً كل شيء، وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا، المعروفة عند الناس، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب، كما يدل عليه العطف، وهو يقتضي المغايرة، ويعزّز ذلك الحديث النبوي الشهير: «اطلبوا العِلْمَ ولَو في الصِّينِ»[١].

فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم «سيكار» ما كان النبي ﷺ يحث على طلبه ولو في الصين، إذ أهل الصين وثنيون، لا يجعلهم النبي ﷺ مرجعًا للعلم الديني كما لا يخفى.

وفي بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي أن المراد بالعلم علم الكون، لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين، وهي في القرآن أضعاف الآيات

(١) تتمته: «فإنَّ طلبَ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم» رواه العُقيلي، وابن عَدي، والبيهقي، وابن عبد البَرّ عن أنس، وفيه عند الأخير زيادةٌ أخرى في فضل العلم، وله طرقٌ يقوّي بعضها بعضًا. (رضا).

في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر / ٢٧-٢٨].

أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان، وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام.

وقد كُنا ظننا هذا الرجل على شيء من حُب الحقيقة، فلمَّا أنكر المدنية الإسلامية رددنا عليه في «المنار»، وجادلناه بالتي هي أحسن، وعظَّمنا من قدر المدنية المسيحية، ووقَّرنا منها، ورددنا على القائلين من الأوربيين بأن النصرانية كانت وقفًا لسير المدنية، وسببًا لسقوط اليونان والرومان إلى غير ذلك.

فكان من «سيكار» هذا أن نشر سلسلة مقالات تتضمَّن من الطعن على الإسلام ما لو جئنا نردّه لم نستغن عن إيراد شبه واعتراضات تتعلَّق بالدين المسيحي، مما نأبى أن نتعرَّض له، لأنه ليس من العدل ولا من الكياسة، ولا من حُسن الذوق، أن نغيظ إخواننا المسيحيين من أجل رجل اسمه «سيكار» أو غيره من هذه الطبقة من الدعاة والمبشّرين، هذا زائدًا إلى ما رأيناه في كلامه من الخلط والخبط والمغالطة، التي من قبيل قوله: «إن العلم المقصود في القرآن ليس هو العلم

المعروف عند الناس بمفهومه المطلق، وإنما هو العلم الديني فقط؛ لأن القرآن لا يهمُّه شيء من علوم الدنيا» فمكابر كهذا لا يستحق الجواب!

ثم علمنا أن المسيو «سيكار» هذا هو من مستخدمي فرنسة في الرباط بإدارة الأمور الإسلامية، وأنه هو والمسيو «لويس برينو» مدير التعليم الإسلامي هناك، والقومندان «ماركو» مدير قلم المراقبة على الجرائد والمطبوعات، والقومندان «مارتي» مستشار العدلية الإسلامية، ورهط آخرون: هم الذين لعبوا الدور الأهم في قضية العمل لتنصير البربر.

وما كان استخدام فرنسة لهم في مهمّات كلُّها عائدة للإسلام إلا على نيّة نقض كل ما يقدرون عليه من بناء الإسلام بالمغرب، وستذوق فرنسة ولو بعد حين وبال ما عملته وتعمله من التعرّض للدين الإسلامي، الذي تعهّدت في معاهداتها باحترامِه.

إنا لا نريد لفرنسة إلا خيرًا، ولكننا ننصح لها بالعدول عن هذه السياسة، التي هي على خط مستقيم ضد المبادئ التي تُعلِنُها عن نفسها، من أن الأديان في نظرِها على حد سواء. فإن كانت الأديان عند الدولة الإفرنسية على حد سواء، فلماذا هذا الاجتهاد في تنصير البربر وهم مسلمون؟ ولماذا هذه المساعي الحثيثة في تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية، وفي فصلهم عن الوحدة السورية، والحال أن العلويين هم فرقة من الفرق الإسلامية كما لا يخفى.

وكذلك ننصح الإنكليز بالعدول عن دعايتهم الدينيّة في السودان وأوغندة، ونصح لهولاندة بترك دعايتها الدينية بين مسلمي إندونيسية.

كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية

يقول بعض الناس[١]: ما لنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم، فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينيَّة، بل وطنيّة قومية كما هي نهضة أهل أوربة؟

ونجيبهم: إن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية[٢]، على شرط أن تتوطَّن بها النفوس على الخَبّ[٣] في حلبة العلم، ولكننا نخشى إن جرّدناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان، واتّباع الشهوات، مما ضررُه يفوِّت نفعه. فلابد لنا من تربية علمية سائرة جنبًا إلى جنب مع تربية دينية.

وهل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضة من نهضات أوربة جرت دون تربية دينية؟

وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينية؟

---

(١) أي: من ملاحدة المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحال أوربة في عصبيتها الدينية. (رضا).
(٢) ولكنّ المسؤول عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون. (رضا).
(٣) الخَبّ: السير السريع. (م).

أفلم يقل رئيس نظّار ألمانية في «الرايستاغ» منذ ثلاث سنوات: إن ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي؟ وهذا هو إعلان ألمانية التي هي المثل الأعلى في العلم والصناعة وإتقان الآلات والأدوات، لا ينازع في ذلك أحد، ولا أعداؤها.

أفتوجد جامعة في ألمانية أو إنكلترة أو غيرهما من هذه الممالك الراقية دون أن يكون فيها علم اللاهوت المسيحي؟[١].

ثم إنهم عندما يقولون: في أوربة نهضة وطنية، أو نهضة قومية، أو جامعة وطنية أو قومية، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر، ولا بالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دم واحد، وإنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلاّن على وطن وأمة بما فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعًا ذلك معًا.. وهذا الذي يناضلون عنه، ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله

(١) وهذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة، والتربية المدرسية الابتدائية وجعلها دينية. (رضا).

أسباب انحطاط المسلمين

في العصر الأخير

من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدُهم كل ثقة بأنفسهم، وهو من أشد الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، لا يتسلَّط هذا الداء على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحق أو باطل أن علتّه قاتلته؟ وقد أجمع الأطبّاء في الأمراض البدنيّة أن القوّة المعنوية هي رأس الأدوية، وأن من أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء، فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون أنهم لا يصلحون لشيء، ولا يمكن أن يصلح على أيديهم شيء، وأنهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يضارعوا الأوربيين في شيء؟!

وكيف يمكنُهم أن يناهضوا الأوربيين في معترك وهم موقنون أن الطائلة الأخيرة ستكون للأوربيين لا محالة؟

فصار مثلهم مع هؤلاء مثل أولئك الأقران، الذين كان يبطش بهم سيدنا علي رضي الله عنه في وقائعه، فقد حدّثوا أنه سُمعت له في صِفّين أربعمئة تكبيرة، وكان من عادته - كرَّم الله وجهه - أن يكبّر كلّما صرع قِرنًا[1]، فقيل له في ذلك فأجاب:

---

(١) قِرْنًا: نظيرًا في القوة والشجاعة. (م).

«كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني قاتلُه، وظن هو أيضًا أني قاتله، فكنت أنا ونفسُه عليه».

وهكذا أصبح المسلمون في الأعصر الأخيرة، يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوربي إلا سينتهي بصرع المسلم، ولو طال كفاحه. وَقَرَّ ذلك في نفوسهم، وتخمَّر في رؤوسهم، لاسيما هذه الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكِّرة العاقلة، المولعة بالحقائق، الصادفة[1] عن الخيالات بزعمها، فإنها صارت تقرّر هذه القاعدة المشؤومة في كل ناد، وتجعل التشاؤم المستمر والنُّعَاب الدائم من دلائل العقل وسَعة الإدراك، وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة، وما زالت تنفخ في بوق التثبيط[2]، وتبثّ في سواد الأمّة دعاية العجز إلى أن صار الاستخذاءُ[3] دَيْدَنَ[4] الجميع، إلا مَن رحِم ربّك، وكانت رُوحه من أصل فطرتها قوية عزيزة.

ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية لا تُقاس بحالة الإفرنج في قليل ولا كثير، بل زعمت أن التعب في مجاراة المسلمين للإفرنج في علم، أو صناعة، أو كسب، أو تجارة، أو زراعة، أو حرب، أو سلم، أو أي منحًى من مناحي العمران – هو ضرب من المحال، وشغل بالعبث

---

(١) الصادفة: المعرضة المنصرفة. (م).
(٢) التَّثْبيط: الحيلولة دون الإنسان وما يريده. (م).
(٣) الاسْتِخْذَاء: الذل والخضوع. (م).
(٤) دَيْدَن: عادة ودأب. (م).

لا يليق بالعاقل إتيانه، وكأن المسلمين من طينة والإفرنج من طينة أخرى، فعلو الإفرنج على المسلمين أمر لابد منه، وكأنه كُتِب في اللوح المحفوظ، وجف به القلم، ولم يبق أمام المسلمين إلا أن يعلموا كونَهم طبقة منحطّة عن طبقة الإفرنج، ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة.

وكثيرًا ما وقعت لي مجادلات مع هؤلاء المتفلسفين بالفارغ، صغار النفوس، ولم يكن يدخل في عقولهم المنطق، ولا يعظُهم التاريخ، ولا يَنفع، في إقناعهم علم الطبيعة ولا التشريح، ولا يحيكُ[1] بهم استنتاج ولا قياس، وذلك لما غلب عليهم من آفة الذلّ، ومرض الاستخذاء، وقد أحس الأوربيون بما عند المسلمين من هذه الحالة الرُّوحية، الموافقة لمصالحهم الاستعمارية، فصاروا يروّجونَها فيهم، ويقوّون عندهم هذه العقيدة، فانطبق على هؤلاء الناعقين بالبَيْنِ[2] الآية الشريفة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة/١٠].

ولم يكن الإفرنجة وسُعاتهم ودعاتهم بلومين على ترويج هذه النظريات التاعسة بين المسلمين، لأنها مّما يسهّل الاستعمار، ويمهِّد طرقَه، ويكفيهم المقاتلات والمنازلات، ويوفر عليهم المزاحمات والمسابقات، ويجعل لهم التفوُّق بلا نزاع، والتسلُّط دون جدال، ولكن العَجَب كل العجب من هؤلاء المسلمين، الذين أمرهم الله ليتصفوا بالعزّة، ويتّسموا بالأنَفَة، ويستوفوا تمام الرجولية، كيف كانوا

(١) لا يحيك: لا ينفع ولا يجدي. (م).
(٢) البَيْن: الشتات والخراب. (م).

ينقادون لهذه الأضاليل، التي مآلها عبوديتهم للأجانب؟! لقد صدق فيهم كلام الله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة/٤٧].

وأكثر ما كانوا يؤكّدون للناس من عدم قابلية المسلمين هو استحالة قيامِهم بالمشروعات العمرانية والأَعمال المادية، وكل ما يتعلّق به حساب ورقم، أو مساحة وقياس.

فإذا قلت لهم: إن كان المسلمون لا يحسنون هذه العلوم كما تزعمون، فكيف استطاعوا أن يؤثروا هذه الآثار الباهرة، التي يؤمها السيّاح من أقاصي الدنيا، وكيف ملؤوا مصر، والشام، والعراق، والمغرب، وإيران، والهند، والقسطنطينية، وغيرها، مباني ومؤسسات تبهر الأبصار، وتحيّر الأفكار؟ وكانت لهم معامل ومناسج ودور صناعات متنوّعة، وغير ذلك مما يُعد في الصناعة من الطراز الأول.

أجابوك: قد كان هذا قبل أن يرقى الإفرنج هذا الرقي الحديث، وقبل أن يكتشفوا أسرار الكون التي كشفوها، وغير ذلك مما ليس بجواب عن هذا الخطاب، والموضوع هو في وادٍ وهذا في وادٍ.

فنحن نريد أن نقول: إن كل من سار على الدرب وصل، وإن المسلمين إذا تعلّموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها الإفرنج، وإنه ليس هناك فرق في القابلية البشرية، ولكن على شرط أن يَنْفض

المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول، ويلغوا هذه القاعدة التي قد كانت من أسباب شقائهم زمنًا طويلاً، وهي أن كل عمل عمراني في الشرق لابد من أن تُستعار له شركة أوربية لتقوم به، وإلا فلا يُستطاع عمله.

ولقد أتت التجاريب بعد ذلك بما يثبت فساد هذه النظرية بتمامها، وتمكَّن المسلمون في كثير من البلاد من إنشاء شركات صناعية وتجارية، وتأسيس معامل ومناسج ودور صناعة، نجحت نجاحًا باهرًا كذَّب مزاعم تلك الفئة المثبِّطة، وصيرها موضوعًا للهزء[١].

ولمَّا عزم السلطان عبد الحميد الثاني العثماني على مد سكة حديدية من دمشق إلى الحرمين الشريفين قُوبِل هذا المشروع أوانئذٍ[٢] بمزيد الاستغراب، تبعًا للعادة، ومن الناس من ضحكوا به، وقالوا: نحن نرى أنفسنا عاجزين عن إنشاء طريق عجلات، فكيف نستطيع أن ننشئ سكة حديدية طولها يزيد عن ألفي كيلو متر؟ وأنى لنا المال والعلم اللازمان لمشروع عظيم كهذا؟

وأغرب من تشاؤم المسلمين وشعورهم بالعجز عن القيام بهذا العمل أن المهندس الألماني الكبير «مايسنر» باشا، الذي انتدبه السلطان لرئاسة مهندسي هذا الخط هو نفسه كان لا يعتقد إمكان إنشاء هذا الخط، وكان هذا الرجل صديقي، فسألته مرّة عن رأيه فيه، فقال لي: إنه يرجو إيصاله إلى معان، وهي

(١) الهُزْء: السخرية. (م).
(٢) أوانئذٍ: في ذلك الوقت. (م).

مسافة أربعمئة كيلو متر من دمشق، فأمَّا مَدُّه من معان إلى المدينة، فيكاد يكون من المستحيل.

فسألتُه: هل ذلك من عدم وجود المال؟

قال: على فرض وُجِد المال، فإن دون إنشاء الخط موانع طبيعية، يتعذّر التغلّب عليها، فإن السكة يلزم لها ماء في كل محطّة، والماء لا يوجد إلا في محطات معدودة، وإن أنشأنا صهاريج تُملأ بماء المطر، لم يؤمن أن الحرارة في الصيف تُنَشِّف بشدّتِها مياه الصهاريج، وهناك صعوبة أُخرى، وهي أن الخط سيمتد في أمكنة كلُّها رمال، وقد تهب الرياح السافياء[1]، فتأتي برمال تغطّي الخطّ، ولا يمكن منع ذلك إلا بزرع الحلفاء والقصب والطرفاء، وكل هذا يلزمه ماء حتى ينمو، وأين الماء من تلك الأراضي؟

هذا كان كلام المهندس الكبير لي من جهة الطبيعة، ثم ذكر الخطر الواقع على الخط من أعراب البادية.

فأمَّا أنا فكنت معتقدًا خلاف اعتقاد الآخرين قائلاً بأن ليس ثمَّة صعوبات لا يُستطاع تذليلُها، وكنت من الذين يندّدون بالمتشائمين والمتهكمين، ونظمت في هذا المشروع قصيدة أحث بها الأمّة على التبرّع لأجلِه، وتبرّعت أنا من جيبي بخمسة عشر جنيهًا، وذكرت ما سيكون لهذا الخط من الفوائد العمرانية

(١) الرياح السافياء: الريح التي تحمل ترابًا كثيرًا. (م).

والاقتصادية والعسكرية، فضلاً عن تسهيل الحج الذي هو هدفه الأسمى، وكان مطلع قصيدتي:

أَلا يا بَنِي الإِسْلاَمِ هَل مِن مُسَاعِدِ لِفِعْل سَمَاويٍّ المَثُوبَةِ مَاجِدِ

فلمَّا طبعت القصيدة ونشرتُها سلقني الكثيرون من أولئك «الغربان» بألسنة حداد، وكأني كفرت في تنويهي بمشروع يربط الشام بالحجاز، ويختصر المسافة بينهما على الحُجّاج من أربعين يومًا إلى أربعة أيام، وهزؤوا ما شاؤوا، وتمنطقوا بقدر ما أرادوا. ولكن كل تلك الفلسفة لم تُجْدِهم فتيلاً، ونجز الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة المنورة، وهي مسافة ألف وأربعمئة كيلو متر، ولولا خَلْع السلطان عبد الحميد لكان قد تم إلى البلد الحرام، ولكن من بعده فترت الهمّة بإكماله، وجاءت الحرب وعواقبها فقضت بإهماله.

ثم إن هذا الخط جاء من أبدع الخطوط الحديدية في العالم، صادفت مرّة فيه أحد كبراء مسلمي الهند من أعضاء مجلسها الأعلى، وهو ممّن تثقفوا ثقافة إنكليزية محضةً، وتخرَّج من جامعة أكسفورد، فقال لي: لا يوجد في نفس إنكلترة سكة حديدية تضاهي في الإتقان هذه السكة، ولو لم أشاهدها بعيوني ما صدقت بوجودها.

وبالفعل لم يصدّق كثير من المسلمين أخبارها، فأرسلوا وفودًا يشاهدونها بأعينهم، فكان المسافر يصل من دمشق إلى المدينة في ليلتين، وكانت دمشق

تستفيد كل سنة من هذا الخط ما يقارب مئتي ألف جنيه، وعُمّرت القرى التي يمر بها الخطّ، وارتفعت أثمان الأراضي ارتفاعًا مدهشًا، وتضاعف عمران المدينة المنوّرة أضعافًا، هذا فضلاً عما توفّر من المشاق والأخطار على الحجّاج والزائرين والتجّار والمسافرين.

وأما الصعوبات الطبيعية التي كانوا يقدّرونها فلم يصح منها شيء، وأمَّا الأعراب فلم يقع منهم على الخط أدنى اعتداء، وكان عند كل محطة من محاط الخط قلعة فيها جند للمحافظة، وكل تلك المحطّات والقلاع كانت مبنية أمتن بناءٍ. ولما كان لا يتاح لغير المسلمين دخول أرض الحجاز، فكان إنشاء الخط أي القسم الداخل منه في الحجاز كله على أيدي مهندسين مسلمين، حتى إن «مايسنر» باشا الألماني نفسه لم يتجاوز في إشرافه بلدة تبوك.

ولمّا ذهبت إلى المدينة المنوّرة زائرًا النبي ﷺ، وذلك سنة ١٣٣٠هـ، كنت أسمع أن عدم مد الخط الحديدي من المدينة إلى مكة نشأ عن اعتراض قبائل العرب من «حَرْبٍ» وغيرها، وأنهم لا يسمحون بمرور الخط في أراضيهم، ففحصتُ عن هذه القضية، فوجدت أكثرها هراء وافتراء، وسألت شيوخ القبائل عمّا يُقال من معارضتهم في إنشاء السكة، فقالوا: «لو كنا معارضين لإنشائها لعارضنا ذلك مِن أوّل دخولها في أرض الحجاز، والحال أننا كنا مساعدين للحكومة على هذا المشروع بكل قوانا».

فسألتهم التوقيع على عريضة للدولة يطلبون فيها تمديد هذا الخط من المدينة إلى مكة، فوقَّع عليها جَمٌّ من أولئك المشايخ، ولم تكن الدولة عهدت إلي بهذه المهمة، وإنما قمت بها خدمة للوطن وللملّة، ولولا طُرُوء الحرب[١] العامة بعد ذلك بقليل لكان بُوشِر بمد الخط الحديدي من المدينة إلى مكة.

فلمَّا انتهت الحرب العامّة واحتلّت إنكلترة فلسطين، وفرنسة سورية، كان أوّل ما توجَّهت إليه همم الإنكليز والفرنسيس هو تعطيل هذا الخط الحديدي، الذي يربط القطر الشامي بجزيرة العرب، ويقرّب صلات المسلمين بعضهم ببعض.

وكم احتج المسلمون على تعطيل هاتين الدولتين لهذا الخط الحيوي للشام والحجاز، وكم أبدوا وأعادوا في أن هذه السكَة الحديدية الحجازية كانت تركية قد جعلتْها من جملة أوقاف المسلمين، فلا يحق لدولة أجنبية أن تعبث بأوقافهم، فلم يكن ذلك ليقنع تَيْنك[٢] الدولتين بالاعتدال، ورفع الاعتداء.

ولا تزال هذه المؤامرة الفظيعة على هذا الحق المقدَّس من حقوق المسلمين نافذة إلى يوم الناس هذا. فإذا قام شخص مثلُنا يذكّرُهم بهذا الاعتداء القبيح، ضاقت صدورُهم به، ودسَّ عليه الإنكليز في السرّ، وطعن عليه الفرنسيس في

(١) طُرُوء الحرب: حدوثها فجأة. (م).
(٢) تَيْنك: هاتين. (م).

الجهر ونعتوه «بعدو فرنسة»، وما أشبه ذلك، والحال أننا إنما نريد صلاح أحوال بلادنا، ولا نضمر لأحد سوءًا.

والشاهد الذي نقصده هنا هو ما سبق إنشاء سكّة الحجاز من تشاؤم كثير من المسلمين، واستهزائهم واستنكارهم، وتأكيد أنه خط محال إنشاؤه، ومشروع يكون من قلّة العقل تعليق الأمل به. وهذا مثال من أمثلة كثيرة، لا يمكن استقصاؤها من كثرتها، فقلّما تدخل بلدًا من بلدان الإسلام، ولا يوردون لك من هذه الأمثال.

وكما ظن المسلمون أنهم لا يحسنون شيئًا من المشروعات العمرانية، وأنه لا بد لهم من الأوربي حتى يُدخِلوا على يدِه الإصلاح في بلادِهم، وأنه من دون الإفرنجي لا يقدرون على أية عمارة، ولا مرفق ذي بال، كذلك ذهبوا إلى أنه لا حظ لهم في الأعمال الاقتصادية أصلاً، وأن كل مشروع اقتصادي إسلامي صائر إلى الحبوط إن لم تكن له أركان إفرنجيّة، وقد طال نومُهم على هذه العقيدة الفاسدة، حتى لم يبق في بلادهم شيء اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدي الإفرنج أو اليهود، وحتى لو دعا منهم داع إلى تأليف شركة تجارية أو صناعية أو زراعية لم يدخلها صاحب رأس مال من المسلمين إلا إذا كانت إدارتها بيد إفرنجي أو يهوديّ. وكلمة الجميع عندهم: نحن لا يخرج مِن أيدينا عمل، ولا نصلح لشيء.

وقد بقي اليهود والفرنجة يتمتّعون بخيرات بلاد الإسلام قرونًا وحِقبًا طوالاً دون مزاحم ولا مراغم، ويستدرّون فيها أخلاف كل صنعة، ويَسْتَوِرُون زِنَاد كل مرفقٍ، إلا ما ليس له بال، حتى لو قدّر ما ضاع على المسلمين في ظل هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغة، وكأن المسلمين لم يوجَدوا في الدنيا إلا عَمَلَة أو أكَرَةً[١]، يشتغلون بأيديهم، ولا يشتغلون بعقولهم.

وبهذا السبب خلا الميدان في بلاد الإسلام لأصناف الأجانب يُرِكضون فيه جياد قرائحِهم[٢] وعزائمهم، ويجمعون الثروات التي ليس وراءها متطلَّع لمزيد، وذلك على ظهور المسلمين ومن أكياسهم، وقد يكثر التحدّث بما يصيب الأجانب من هذه المكاسب الطائلة، التي كان أهل الإسلام أولى بها؛ لأنها من بلادهم، ولا تحفزهم همّة، ولا تأخذهم غيرة، فيجرّبوا الخَبَّ في الحلبات الاقتصادية إلى أن نبغ في مصر «محمد طلعة باشا حرب» فكان في هذا الباب أمّة[٣] وحدَه، وأدرك بواسع عقله، وثاقب فكره، أن ليس في هذا الموضوع شيء يفوق طاقة المسلمين، ولا مما يتعذّر وجود أدواته عندهم، وأن قصورهم فيه عن مباراة[٤] الأجانب لم يكن إلا من آثار ذلك التوهم القديم، الذي هو أنهم لا يحسنون الجري في أي ميدان من ميادين الاقتصاد، وقد وُجِدَت عند هذا الرجل في جانب رجاحة

(١) أكَرَة: أُجَراء. (م).
(٢) قِرائحهم: مَلَكَاتهم. (م).
(٣) أمّة: لا نظير له. (م).
(٤) مباراة: منافسة. (م).

العقل وسَدَاد الحُكْم همة بعيدة قَعْسَاء[١]، ونزعة وطنيّة صافية من الأقذاء[٢]، سالمة من الأهواء، فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ بالشرق بنهضة اقتصادية تزاحم بالمناكب وثبات الأجانب، وممّا يندر في الرجال الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع، وهما قد انتظما جنبًا إلى جنب في دماغ «طلعة باشا حرب» فكانت سعة خياله مساعدة له على الإقدام نحو المشروعات، التي هي مظان الأرباح، وكانت دقة حسابه مساعدة له على نجاحها، وضمان أرباحها.

وبالاختصار اقتحم «طلعة حرب» معركة هي الأُولى من نوعها في المجتمع الشرقي، وعندما باشر جمع رأس المال الذي كان حدَّدَه لإنشاء بنك مصر، وهو ثمانون ألف جنيه، عانى في ذلك أهوالاً، ونحت جبالاً، وذلك لِمَا ران على عقول المسلمين، من أنهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصاديّ، وأن كل عمل منهم في هذا السبيل حابط من نفسه، هابط على أُمّ رأسه.

فلمَّا أخذ «طلعة باشا حرب» يتقاضى أغنياء مصر المشاطرة في هذا المشروع لبّوا نداءه حياء منه، لا اعتقادًا بأنه سيأتي بثمرةٍ، وبقيت ثقتهم بأجمعها في بنوك الأجانب، وما زال معوّلهم عليها إلى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذي كاد يكون معجزة في نظرهم، وارتفع رأس مال بنك مصر من ثمانين ألف جنيه إلى مليون جنيه، واحتوت خزائنه من الودائع على عِدَّة ملايين من الجنيهات، واشتمل على

(١) قعساء: ثابتة. (م).
(٢) الأقذاء: ما يقع في العين أو الماء أو الشراب من تراب ونحوه، جمع «قذى». (م).

أملاك، وسلفات، وشركات متعدّدة متنوّعة، تقدَّر بملايين أخرى من الجنيهات، بحيث زادت الأموال التي تحت تصرّف البنك على عشرين مليون جنيه، كل هذا في ثماني عشرة سنة، أنشأ فيها «طلعة باشا حرب» و«مدحة باشا يكن» ورفاقهما على حساب بنك مصر «شركة مصر للغزل والنسيج» التي معملها في المحلّة، هو من أكمل وأعظم معامل الغزل والنسيج في العالم، يعمل فيه ثمانية عشر ألف عامل، يندُر فيهم غير المصريّ، ويسد من المنسوجات القطنية ثلث حاجة القطر المصري بأجمعه، فيكون قد وفَّر على المملكة المصرية ثلاثة ملايين جنيه سنويًّا كانت من قبل تخرج من جيوب المصريين، لتدخل في جيوب الأوربيين.

وهناك من توابع بنك مصر «شركة مصر لنسج الحرير»، و«شركة مصر للتمثيل والسينما»، وكل هذه نالت معروضاتُها الجوائز الكبرى في المعرض الدولي الباريزي سنة ١٩٣٧م، ثم «شركة مصر لمصايد الأسماك» و«شركة مطبعة مصر»، و«شركة مصر للطيران» و«شركة مصر للسياحة» وناهيك بـ«شركة مصر للملاحة البحرية» وما أنشأته من المنشآت الجواري كالأعلام[1] مثل «زمزم» و«الكوثر» و«النيل» وغيرها مما كاد يكون كالأحلام، فصار الحُجَّاج يبلغون الحجاز على بواخر يرون بها أنفسهم في مثل قصور الملوك فراهة ورفاهةً، وراحة ونعيمًا، ومقامًا كريمًا، وصار سيّاح مصر الكثيرون إلى أوربة في فصل الصيف يركبون تحت العلم المصري الشريف بواخر لو قُرِنت ببواخر الأمم الأوربية حلَّت بينها

---

(١) الأعلام: الجبال، جمع «العَلَم». (م).

في الصف الأول، هذا بعد أن قضينا كل هذا الدّهر نسير ونسري في البواخر الأجنبيّة، ونؤدي إليها أموالنا بلا سبب، سوى قصور هممنا عن إنشاء بواخر خاصة بأوطاننا، بها ركوبُنا، وعليها نقل بضائعنا.

وليس هنا محل تفصيل مشروعات «طلعة باشا حرب» باعث النهضة الاقتصادية في الشرق، لنخوض في هذا العباب ولا مقصدنا تمجيدُه والإشادة بمآثره[١]، ولو بالحقيقة، وإنما كان إيرادُنا هذه القصّة على سبيل المثال، لما كان عليه المسلمون من الجُبْن في المواطن الاقتصاديّة، إلى أن هَبَّ هذا الرجل «مدير بنك مصر» فأيقظهم من سُبَاتهم[٢]، وأعلمهم أنهم رجال كما الأوربيون رجال، وأنهم إذا شحذوا غرار عزائمهم، وأعملوا أسنة قرائحهم، قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة.

وها نحن أولاء الآن نرى العاملين في بنك مصر وفي الشركات المضافة إليه ثلاثين ألف مستخدم وعامل، كلُّهم مصريون إلا النادر الأندر.

وهكذا بدأ المسلمون يقتحمون معارك الحياة الاقتصادية في كل فن من فنونها، وتولَّدت عندهم في أنفسهم ثقة كانت محجوبة عنهم من قبل، بحيث إن «أحمد حلمي باشا» والسيد «عبد الحميد شومان» من فلسطين أسَّسا في القدس بنكًا كل رأسماله خمسة عشر ألف جنيه، وتوفقا بِحُسْن إداراتهما إلى أن صيّرا

(١) بمآثره: بأعماله الخيرية. (م).
(٢) سُبَاتهم: نومهم العميق. (م).

هذا «البنك العربيّ» الوحيد في القطر الشامي من البنوك المعدودة ذوي الفروع الكثيرة صار يشتمل على خمسمئة ألف جنيه.

وكذلك أسّسا بنكًا زراعيًّا، شاطر في تأسيسه أكثر من خمسة آلاف مساهم من عرب فلسطين، وبلغ رأسماله نيفًا ومئة ألف جنيه، فسدّت بهذين البنكين الأمة العربية في فلسطين حاجتها، واستغنى ذوو الحميّة منها عن الالتجاء إلى بنوك الأجانب، وفهم الناس أن هؤلاء ليسوا فوق الشرقيين، وأنهم لا يعجزون.

إنما جئنا بهاتين المسألتين للاستدلال على الأضرار الفظيعة التي كان يُحدثها بالمسلمين عدم ثقتهم بأنفسهم.

ولعلّهم بدؤوا يتعافون الآن من هذا المرض الاجتماعي المهلك، والله غالب على أمره.

هكذا إذا توجّهت الهمم

الإصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدّسة

توالت على بلاد الإسلام المقدّسة قرون وأحقاب كانت فيها أشد البلاد افتقارًا إلى الإصلاح، وأقربها إلى الفوضى، وأقلّها أَمَنَةَ سُبلٍ وراحة سكان، وأكثرها عيثًا[1] وفسادًا. وكانت هذه الحالة فظيعة جدًّا مخجلة لكل مُسلم، مرمضةً[2] لكل مؤمن، حجة ناصعة للأجانب على المسلمين، الذين لا يقدرون أن ينكروا ما في الحجاز من اختلال السُّبل، واضطراب الحَبْل مع كونه هو مهد الإسلام، ومركز الحجيج العام، في كل عام، إلى بيت الله الحرام، والمشاعر العظام، ومهوى قلوب يتأجَّج بها الغرام، لزيارة مرقد الرسول عليه الصلاة والسلام.

كان الأجانب يستظهرون بهذه الحالة على دعوى أن الإسلام لا يلتئم مع العمران، وأنه هو والفوضى توءمان، وأنه لو كان دينًا عمرانيًّا لما كانت تكون هذا الحالة السيئة في مركزِه، ولما عَجز عن إقامة العدل والأمن في مأزره[3].

وحقيقة الحال هي أن تلك الفوضى لم تنشأ إلا عن إهمال العمل بقواعد الشرع الإسلامي، وعن إرخاء العنان لبعض الأمراء، الذين كانوا يَلون أمر الحجاز

(١) عيثًا: فسادًا. (م).
(٢) مُرمِضة: شديدة الأذى. (م).
(٣) مأزره: حِمَاه. (م).

مدلّين على الناس بما لهم من النسب النبوي الشريف، الذي كان يحول بين سلاطين الإسلام وبين تشديد الوطأة عليهم، أو إرهاف الحد فيهم، وقد كان هذا من خَطَلِ[1] الرأي، ومن التقصير في جانب الشرع، فإن الشريعة الإسلامية لا تعرف نسبًا ولا حسبًا، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون/١٠١].

وإن الله تعالى قد جعل التقوى فوق كل المناقب والمحامد، وقرّر أن «مَن قَصَّر به عملُه لم ينهض به نَسَبُه»، ومن المروي عن النبي ﷺ: «ألا إنَّ بعضَ آلِ بَيْتي يَرونَ أنفسَهم أَولَى النَّاسِ بِي، وليسَ الأمرُ كَذَلكَ، إنَّما أَوليَائي المُتَّقُون، مَن كَانُوا، وحيثُ كَانُوا. أَلا إنِّي لا أُجيزُ لأَهْلِ بَيتي أَنْ يُفسِدُوا ما أَصْلَحتُ».

هذا حديث نقلَه لنا خاتمة المُحدِّثين المرحوم السيد «بدر الدين الحسني المغربي الدمشقي». وكيف كانت درجة ثبوته فهو مطابق لرُوح الشرع، تتفجَّر معانيه من كل ناحية من الكتاب.

ولهذا كان سلاطين الإسلام من وقت إلى آخر ينذرون من أمراء الحرمين من كانوا يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحقّ، ولقد ذهب مثلاً ذلك الكتاب الذي كتبَه أحد سلاطين مصر من المماليك إلى أحد أمراء مكّة المكرمة، وهو الذي يقول فيه: «اعلم أن الحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوّة

---

(١) خَطَل: فساد. (م).

أحسن، والسيئة في نفسها سيئة، وهي من بيت النبوّة أسوأ، وقد بلغنا أنك بدّلَت حَرَم الأمن بالخيفة، وأتيت ما تحمر له الوجوه، وتسودُّ الصحيفة، فإن وقفت عند حدِّك، وإلا أغمدنا فيك سيف جدِّك».

ولا ينبغي أن يُفْهَم من هنا أن هؤلاء الأمراء لم يكن فيهم إلا من يستحق هذا الوصف. كلا، فقد وُجِد فيهم الأمراء العادلون، إلا أنه قد بقيت مع الأسف أحوال الحجاز غير مستوية وأعراب البادية يسطون على الحجاج، وليس لداء معرّتهم[١] علاج، وكانت كل من الدولة العثمانية والدولة المصرية ترسل طوابير من الجند النظامي مصحوبة بالمدافع وسائر آلات القتال لأجل خفارة قوافل الحج، وتؤدّي إلى زعماء القبائل الرواتب الوافرة، وكل هذا لم يكن يمنع الأعراب ومن لا يخاف الله من الدُّعَّار[٢] من تخطّف الحجاج في كل فرصة تلوح لهم.

وكثيرًا ما كانت قافلة الحج تضطر إلى الرجوع، وقد فاتها الحج أو الزيارة، بعد أن قصدوا ذلك من مكان سحيق، وتكلّفوا بذل الأموال، وتجشّموا مشاق الأسفار في البر والبحر، فكانوا يذوبون من الشوق على ما فاتهم، ويتحرّقون من الوجد، ويبكون بصيِّب الدمع، والناس بأجمعهم يحوقلون، ويقولون: «ليس لها من دون الله كاشفة» ذاهبين إلى أن سطو الأعراب هؤلاء داء عضال، لا تنفع فيه حيلة ولا وسيلة، وقد عمَّت بهم البلوى، وإلى الله المشتكى.

---

(١) معرتهم: معرّة: أذى وإساءة ومكروه. (م).
(٢) الدُّعَّار: قطاع الطريق للسلب والنهب. (م).

وهكذا توالت القرون والحقب، والناس على هذا الاعتقاد، لا يتزحزحون عنه، إلى أن آل أمر الحجاز إلى «الملك عبد العزيز بن سعود» منذ بضع عشرة سنة، فلم تمض سنة واحدة حتى انقلب الحجاز من مَسْبَعَةٍ[١] تزأر فيها الضواري في كل يوم، بل في كل ساعة، إلى مهد أمان، وقرارة اطمئنان، ينام فيها الأنام بملء الأجفان، لا يخشون سطوة عادٍ، ولا غارة حاضر ولا بادٍ، وكأن أولئك الأعراب، الذين روَّعوا الحجيج مدّة قرون وأحقاب، لم يكونوا في الدنيا، وكأن هاتيك الذئاب الطُّلْس[٢]، تحوَّلت إلى حملان، فلا نهب ولا سلب، ولا قتل ولا ضرب، ولو شاءت الفتاة البِكْر الآن أن تذهب من مكة إلى المدينة، أو من المدينة إلى مكة، أو إلى أية جهة من المملكة السعودية، وهي حاملة الذّهب والألماس، والياقوت والزمرُّد، ما تجرَّأ أن يسألها عما معها.

ما من يوم إلا وتُحْمَل فيه إلى دوائر الشرطة لُقَط متعدِّدة، ويُؤتى بضوالٍّ فقدها أصحابها في الطرق، وأكثر من يأتي بها الأعراب أنفسهم خدمة للأمن العام، وإبعادًا للشبهة عنهم، وعن ذويهم، فسبحان محوِّل الأحوال، ومقلِّب القلوب، ووالله لا يوجد في هذا العصر أمن يفوق أمن الحجاز، لا في شرق، ولا في غرب، ولا في أوربة، ولا في أمريكة، وقد تمنى المستر «كراين» الأميركي صديق العرب الشهير في إحدى خطبه أن يكون في وطنه أمريكة الأمن الذي رآه في الحجاز واليمن.

---

(١) مسبعة: مكان كثير السِّباع. (م).
(٢) الطُّلْس: صفة للذئاب إذا كانت مائلة للسواد. (م).

وكل من سكن أوربة وعرف الحجاز في هذه الأيام يحكم بأن الأَمَنَة على الأرواح والأعراض والأموال في البقاع المقدّسة هي أكمل وأشمل وأوثق أوتادًا، وأشد أطنابًا[١] منها في الممالك الأوربية والأمريكية، فأين أولئك الذين كانوا يقولون: إن الأعراب لا يقدر على ضبطها إنسان، وإن سكان الفيافي[٢] هم غير سائر البلدان؟!

فها هو ذا «ابن سعود» قد ضبطها بأجمعها في مملكته الواسعة، ومحا أثر الغارات والثارات بين القبائل، وأصبح كل إنسان يقدر أن يجوب الصحارى وهو أعزل، ويدخل أرض كل قبيلة دون أن يعترضه معترض، أو يسأله سائل إلى أين هو غادٍ، أو رائح، ولو قيل لبشر: إن بلادًا كان ذلك شأنها من الفزع والهول، وسفك الدماء وقطع الطرق، قد مَرَد أهلُها على هذا البغي وهذا العدوان، من سالف الأزمان، وإنه يليها ابن سعود، فلا تمضي على ولايته لها سنة واحدة حتى يطهّرها تطهيرًا، ويملأها أمنًا وطمأنينةً، لظن السامع أن يسمع أحلامًا أو خرافات، أو اتّهم القائل في صحَّة عَقْلِه.

ولكن هذا قد صار حقيقة كليّةً، وقضية واقعية في وقت قصير، وما أوجدته إلا همّة عالية، وعزمة صادقة، وإيمان بالله، وثقة بالنفس، وعلم بأن الله تعالى مؤيد

---

(١) أشد أطنابًا: يعني حبال الخيمة المشدودة ويقصد بها قوة أمن الحجاز وقتها. (م).
(٢) الفيافي: الصحاري الواسعة التي لا ماء فيها. (م).

مَن أَيَّده، ناصر من نصره، يحث على العمل، ويكافئ العامل، ويكره اليأس، ويقول لعباده: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر/٥٦].

وقد سَرَت بُشرى الأمان الذي شمل البلاد المقدَّسة الحجازية فعمَّت أقطار الإسلام، وأثلجت صدور أبنائه، وارتفعت عن الحجاز تلك المعرّة التي طالما وجم[١] لها المسلمون، وذلك بقوّة إرادة «الملك عبد العزيز بن سعود» والتزامه حدود الشرع. ولكن ليس هذا كل شيء، وقد بقيت حاجات في الصدور، فلم تزل تعوز الحجاز وسائل كثيرة للراحة والهناء، من قبيل الإصلاحات الماديّة العمرانية، التي يتوق إليها الحجّاج، ولا يجدونها، وهي إصلاحات عصرية لا طاقة للحجاز بها مع قلّة الموارد إلى بيت المال، وازدياد الخرج على الدَّخل، وأيضًا مع استئثار أكثر بلاد المسلمين بأوقاف الحرمين الشريفين، وعدم استعمالها فيما وُقفت عليه.

وقد كان يتحتم على العالم الإسلامي أن يشاطر من زمن طويل في إزاحة هذه العلل المادية، التي يتعذَّر على الحجاز بحق أن يقوم بها وحده، لاسيَّما أن الحرمين الشريفين ليسا للعرب وحدهم بل لجميع المسلمين.

فلم تزل هذه المسألة موضوع الأماني، ومتّجه الآمال، والناس ينتظرون فيها الابتداء بعمل من الأعمال، إلى أن عقدت مصر عزمها على هذا الأمر،

---

(١) وجم: سكت وعجز عن الكلام من شدة الغيظ أو الخوف أو الهم. (م).

الذي تعتبر مصر جِد مليئة[١] بأن تضطلع[٢] به، وبأن تكون فيه السابقة والقدوة لغيرها.

ولم يطلق على مصر لقب «كنانة الله في أرضه» عبثًا، بل هي من قديم الدهر موئل الحجاز وأنبار المُسنِتين[٣] من أهله، وحسبك ما قامت به مصر عام الرّمادة من ميرة[٤] الحجاز بطلب سيدنا عمر إلى سيدنا عمرو رضي الله عنهما، ومن بعد ذلك لم تشتد بأهل الحرمين لأَوَاء[٥]، ولا عضّتهم مَسْغَبة[٦] بنابها، إلا أسرعت إليهم مصر بالإغاثة، وتفريج الكُربة، لم تتخلّف مصر عن هذا الواجب في وقت من الأوقات.

وفي هذه الأيام عندما اشتد الشعور بوجوب إصلاح الحجاز من الناحية العمرانية بعد أن أُزيحت عِلّته من جهة تأمين السوابل، كانت مصر هي الناهضة لمد يد المساعدة إليه في هذا الشأن، وكأنما كُتب في اللوح المحفوظ أن يكون «محمد طلعة باشا حرب» هو الطالع حربًا على الخلل والفوضى والإهمال في عمران الشرق، فوجّه شطرًا من همّته العلياء شطر البيت الحرام، الذي قد أمرَنَا الله بأننا حيث ما كُنا نولّي وجوهنا شطره، لئلا يكون للناس علينا حجة، فكان

---

(١) مليئة: غنية. (م).
(٢) تضطلع: تقوى وتنهض. (م).
(٣) أنبار المسنتين: الأنبار: مخازن الطعام، والمسنتين: شديدي الحاجة. (م).
(٤) ميرة: ما يُدخر من طعام ونحوه للسفر. (م).
(٥) لأوَاء: شدة. (م).
(٦) المسغبة: المجاعة. (م).

«طلعة باشا حرب» في هذه الحلبة أيضًا هو المجلّي، وكان قد بدأ من بضع سنين بتأسيس «شركة الملاحة البحرية»، وأنشأ البواخر الجواري كالأعلام، البالغة الحد الأقصى من أسباب الراحة والانتظام، مثل «زمزم» و«الكوثر» وغيرهما مما قد سبق الكلام عليه، وحصل بذلك من الفرج لحجّاج بيت الله الحرام ما تحدَّثت به الرُّكبان، وشاع ذِكرُه في البلدان.

ولكن لم يكن هذا كل ما تسمو إليه همّة هذا الرجل من إصلاح عمرانيّ، وتنظيم مادي في الحجاز، فقصد إلى الأرض المقدَّسة، ونظر في مختلف العلل التي تجب معالجتها، وعرض نتيجة مشاهداته على الحكومة المصرية، التي أسرعت في إجابته إلى تقرير اللازم من هذه الإصلاحات الحيويّة، بالاتفاق مع الحكومة السعودية، التي بذلت كل ما في وسعها لأجل تسهيل الاتفاق، وتيسير الارتفاق، فكان ما ستنفقه الحكومة المصرية والحكومة السعودية هذه النوبة على إصلاحات الحجاز من إنشاء طرق وإنارة كهربائية، وتوزيع مياه وتطهيرها، وغير ذلك نحوًا من مئتين وأربعين ألف جنيه.

وهكذا تكون الدولة المصرية قد نهجت السبيل لجميع الحكومات الإسلاميّة في العالم أن تشاطر في القيام على قدر إمكانها، بما يستلزمه الحجاز من الإصلاحات العصرية، التي لا مندوحة عنها في قطر يؤمه المسلمون من المشارق والمغارب، سالكين إليه البر والبحر والجوّ، وهو مرشّح حتمًا بواسطة طرق الانتقال الحديثة لزيادة العمران، وتكاثف السكان، وليكون أنموذجًا للجمال الصوري

والمعنوي، ومثالاً لطيب النجعة[1] في الشتاء والصيف، فإن الذي يشتمل عليه الحجاز من المصايف البديعة كالطائف والهدَا ووادي مَحْرَم ووادي ليّة، وجبال الشفا العالية ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر، يندُر وجود أشباهه في المعمور، كما فصّلنا ذلك في رحلتنا الحجازية الموسومة «بالارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» لا يعوز هذه الأمكنة الممتازة بطيب هوائها وجودة مناخها وجمال إقليمها سوى الطرق المعبدة للسيارات، حتى تقرب المسافات.

وقد نشرت «شركة بنك مصر» عن الإصلاحات اللازمة للحجاز تقارير وافية قيّمة من أقلام المهندسين البارعين، الذين أنفذتهم شركة البنك إلى الأراضي المقدّسة مثل «محمد الجمال بك» نائب المدير العام لمعامل الغزل والنسيج المصرية، الذي تكلّم عن حالة الحجاز العمومية، وقابلية أرضِها، وما يلزُم لهذه البلاد من الأسباب الفنيّة، والمدارس الصناعية، وألم بمشروع المياه، الذي يلزم له بناء خزان في مكان مرتفع، تعلو عنه عين زبيدة، بحيث يسد كل عَوَز في مكة من جهة المياه، وبمشروع إضاءة مكة بالكهرباء، وبمشروع إنشاء طريق صالحة للسيارات من جدّة إلى البلد الحرام، أو سكة حديدية توصِل بينهما، ومشروعات أخرى تضمّنها هذا التقرير الواضح المفيد، الذي ليس فيه محل نظر سوى تخمينه عدد مسلمي المعمور بمئتين وخمسين مليونًا، فهذا خطأ فاحش، ناشئ عن متابعة إحصاءات قديمة أوربية غير نزيهة، أو ثمة خطأ مطبعي تصحيحه

---

(١) النجعة: الإقامة والنزول. (م).

(٣٥٠) مليونًا، وهذا أيضًا دون الواقع، كما أوضحنا ذلك بالإحصاءات الرسمية، والبراهين الساطعة في مجلتنا الأمة العربية (La Nation Arabe) ردًّا على الزاعمين أن عدد المسلمين (٢٦٠) مليونًا، مع أن مسلمي آسية وحدها ينيفون[1] على (٢٦٠) مليونًا، وقد بقي غير داخل في هذا الإحصاء مسلمو إفريقية، الذين يناهزون مئة مليون، ومسلمو أوربة الذين هم من خمسة إلى ستة ملايين.

ولقد اهتممنا بهذا الموضوع عمدًا لما نحسُّه من تحرّج صدور الأوربيين بكثرة عدد المسلمين، واجتهاد الدول الاستعمارية بخاصّة أن يُنقصوا من عددهم، ويُخْسِروا من وزْنِهم، فمحَّصنا هذا البحث عِدَّة مرّات لما نشعر من نيّتهم هذه.

ثم نعود إلى قضية إصلاحات الحجاز فنقول: إن من جملة التقارير الوافية في هذا الموضوع تقريرًا محرّرًا بقلم المهندس المحقّق «السيد حسن البهتيمي» الذي يتكلَّم على تحويل مجرى السيل عن مكّة، وعلى تحسين طريق المسعى بين الصفا والمروة، وتحسين طريقة ورود المياه بعرفات من عين زُبيدة، وإنارة البلد الأمين بالكهرباء، وتقريرًا آخر في هذه المسائل نفسها من قلم السيد «مصطفى ماهر» رئيس مهندسي مياه الجيزة والجزيرة بمصر، ذهب فيه إلى أنه بعد أن يتم إصلاح توزيع «عين زبيدة» و«عين حُنين» التي يتفرَّع منها المجرى المسمّى بعين الزعفران، يجب أن يباشر الحفر في سائر الآبار والأودية، التي هي مظان مياه

---

(١) ينيفون: يزيدون. (م).

غزيرة، تفيض عن حاجة مكّة من جهة شرب الشَّفَة، وتكفي للزراعة وللبساتين، قال :«ومشروع المياه سيكون مفتاحًا للبحث عن هذه الكنوز الأرضية».

وتكلّم المهندس المشار إليه عن «بئر زمزم» وقال: إن في مائها أملاحًا نافعة كأملاح المياه التي يُستشفى بها في أوربة، فهي من هذه الوجهة صالحة لتوضع في زجاجات معقّمة مقفَلَة، وتُحمل إلى الخارج وتباع، فيكون منها ربح جزيل.

ثم أشار بالوسائل اللازمة لصيانتها من الجراثيم الضارّة، وأن يتولّى عالم بكتريولوجي دوام تحليلها، ليكون تعقيمها تامًّا.

وتكلَّم عن عملية مياه «عين زبيدة» وبناء الخزّانات اللازمة بتفاصيل ليس هنا مكانُها.

وأصحب التقرير بالرسوم التي توضِّح كل شيء، وأشار إلى إنارة مكّة بالقوّة الكهربائية، وما فيها من أرباح وفوائد، وذلك كما قرّره المهندسون الآخرون، ولكلٍّ وجهة هو مولّيها.

وفي تقرير المهندس الكبير السيد «مصطفى ماهر» كلام خاص بالمدينة المنوّرة، التي هي جنة من جنان الأرض، وفيه وصف مياهها العذبة الغزيرة، وحدائقها الغناء، وقد ختم تقريره الشائق بقوله: «وإني أسأل الله أن يوفِّق عباده المؤمنين إلى مد يد المعونة إلى الأراضي المقدّسة قِبلة المسلمين، كلٌّ فيما يقدر

عليه، للتيسير على أهلها، والاحتفاظ لهذه البقاع الطاهرة بما يليق بها من الجلال والوقار» . اهـ.

وتنتهي مجموعة هذه المباحث التي أعظم اليد في إجرائها لطلعة باشا حرب بالتقارير الصحية الجليلة الوافية من قلم العلماء المتخصصين السادة: «محمد حسن العبد»، و«مصطفى ماهر»، و«حسن حسني راشد» الكيميائي بوزارة الصحة المصرية، و«حسن البهتيمي» وكيل القلم الفني ببنك مصر.

وفي هذه التقارير التحليلات المفصّلة الدقيقة لمياه «بئر زمزم»، ومياه «عين زبيدة»، ومياه «عين الزعفران» في مكة، و«عين الزرقاء» في المدينة المنورة، مع التواصي الفنية اللازمة للاستفادة منها.

ولما كانت هذه المجموعة قد نُشرت ووزّعت اكتفينا منها بلمحة دالّة في هذه الرسالة، سائلين الله أن يوفّق كُلاً من الدولتين العزيزتين المصرية والسعودية إلى إتمام هذه الإصلاحات الجليلة بحذافيرها، فإن الإصلاح واجب في كل مكان فكيف البقاع المقدسة؟!

خُلاصَة الجَوَاب

إن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم

إن الواجب على المسلمين - لينهضوا ويتقدَّموا ويعرجوا في مصاعد المجد، ويترقّوا كما ترقَّى غيرهم من الأمم - هو الجهاد بالمال والنفس، الذي أمر به الله في قرآنه مرارًا عديدة، وهو ما يسمّونه اليوم بـ «التضحية».

فلن يتم للمسلمين، ولا لأمّة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية، وربما كان الشيخ «محمد بسيوني عمران» أو غيره من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظن أني سأجيبه أن مفتاح الرقي هو قراءة نظريات «أينشتين» في النسبية مثلاً، أو درس أشعة «رونتجن»، أو ميكروبات «باستور»، أو التعويل في اللاسلكي على التموُّجات الصغيرة أكثر من الكبيرة، أو درس اختراعات «أديسون» وأن سبب حادثة المنطاد الإنكليزي الذي سقط أخيرًا واحترق هو كونُه لم يُنفَخ بالهليوم، وإنما بالهيدروجين، والحال أن الهيدروجين - وإن كان أخف في الوزن - قابل للاشتعال، وأنه لا خوف من اشتعال الهليوم، وإن كان أثقل شيئًا من الهيدروجين - وما أشبه ذلك.

والحقيقة أن هذه الأمور إنما هي فروع لا أصول، وأنها نتائج لا مقدّمات، وأن التضحية، أو الجهاد بالمال والنفس هو العِلْم الأعلى، الذي يهتف بالعلوم كلِّها.

فإذا تعلَّمت الأمة هذا العلم، وعملت به، دانت لها سائر العلوم والمعارف، ودنت منها جميع القطوف والمجاني.

وليس بضروري أن يكون صاحب الحاجة عالمًا بعملها حتى يكون عالِمًا بالاحتياج إليها.

قال لي مرّة حكيم الشَّرق السيد جمال الدين الأفغاني: «إن الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء، فإذا مرض ابنه اختار له أحذق الأطباء، وعلم أن هناك شيئًا نافعًا هو العلم، لا يعلم هو شيئًا منه، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه أنه ضروري».

ولم يكن «محمد علي» عالمًا، وربمّا كان أميًا، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود في زمن قصير، وصيّرها في زمانه من الدول العظام، بسائق هذا العلم الأعلى، الذي هو العقل السليم والإرادة، وهو الذي يبعث صاحبه إلى التفتيش عن العلوم، وحمل الأمّة عليها.

والمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم، وعملوا بما حرّضهم عليه كتابهم؛ أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا

على إسلامهم، كما بقي أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، فإن أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذي يُعْوِزُنا[1] الأعمال، وإنما الذي يضرُّنا هو التشاؤُم والاستخذاء وانقطاع الآمال.

فلننفض غبار اليأس، ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغون كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان التي في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت/٦٩].

«تم الجواب»

شكيب أرسلان

لوزان (١١) نوفمبر سنة(١٩٣٠م).

﴿نهاية المتن﴾

---

(١) يُعْوِزنا: نحتاجه. (م).

معد التقديم في سطور

سامر عبد الرحمن رشواني

- باحث وأكاديمي سوري، عضو الهيئة التدريسية بكلية الشريعة جامعة دمشق. ولد في حلب/ سوريا عام ١٩٧٦، وتخرج في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٩٧. حاز درجتي الماجستير والدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.
- رئيس تحرير الملتقى الفكري للإبداع.

من أبرز المؤلفات والأبحاث العلمية:

- «الجدل حول القرآن: دراسة تاريخية».
- «منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: دراسة نقدية».
- «خطاب التجديد الإسلامي» (بالاشتراك).
- بالإضافة للعديد من الأبحاث والمقالات المقدمة للمؤتمرات والمجلات العربية.

اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١٣/٢٠١٢

سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

صدر في هذه السلسلة

(١) العودة إلى الذات، تأليف علي شريعتي.
(٢) الحياة الروحية في الإسلام، تأليف محمد مصطفى حلمي.
(٣) امرأتنا في الشريعة والمجتمع، تأليف الطاهر الحداد.
(٤) الإسلام دين الفطرة والحرية، تأليف عبد العزيز جاويش.
(٥) المرأة والعمل، تأليف نبوية موسى.
(٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، تأليف مصطفى عبد الرازق.
(٧) دفاع عن الشريعة، تأليف علال الفاسي.
(٨) مقاصد الشريعة الإسلامية، تأليف الطاهر ابن عاشور.
(٩) تجديد الفكر الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس.
(١٠) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تأليف عبد الرحمن الكواكبي.
(١١) المدرسة الإسلامية، تأليف محمد باقر الصدر.
(١٢) الإسلام وأصول الحكم، تأليف علي عبد الرازق.
(١٣) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تأليف خير الدين التونسيّ.
(١٤) الحرية الدينية في الإسلام، تأليف عبد المتعال الصعيديّ.
(١٥) الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية، تأليف حسين الجسر.
(١٦) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، تأليف محمد الغزالي.
(١٧) القرآن والفلسفة، تأليف محمد يوسف مُوسى.
(١٨) كشف المخبَّا عن فنون أوربا، تأليف أحمد فارس الشدياق.
(١٩) المرشد الأمين للبنات والبنين، تأليف رفاعة الطهطاوي.
(٢٠) شروط النهضة، تأليف مالك بن نبيّ.
(٢١) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، تأليف رفاعة الطهطاويّ.
(٢٢) نهضة الأمة وحياتها، تأليف طنطاويّ جوهريّ.
(٢٣) البيان في التمدن وأسباب العمران، تأليف رفيق العظم.
(٢٤) - (٢٥) تحرير المرأة، تأليف قاسم أمين، وتربية المرأة والحجاب، تأليف طلعت حرب.
(٢٦) تنبيه الأمة وتنزيه الملة، تأليف محمد حسين النائيني، تعريب عبد المحسن آل نجف، تحقيق عبد الكريم آل نجف.
(٢٧) خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، تأليف محمد باشا المخزومي.
(٢٨) - (٢٩) السفور والحجاب، تأليف نظيرة زين الدين، ونظرات في كتاب السفور والحجاب، تأليف مصطفى الغلاييني.
(٣٠) في الاجتماع السياسي الإسلامي، تأليف محمد مهدي شمس الدين.
(٣١) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟، تأليف الأمير شكيب أرسلان.
(٣٢) المدنية الإسلامية، تأليف شمس الدين سامي فراشري، ترجمة وتقديم محمد م الأرناؤوط.
(٣٣) المدنية والإسلام، تأليف محمد فريد وجدي.
(٣٤) المسئلة الشرقية، تأليف مصطفى كامل.
(٣٥) وجهة العالم الإسلامي، تأليف مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين.
(٣٦) طلعة الشمس شرح شمس الأصول، تأليف نور الدين عبد الله بن حميد السالمي.

LIMĀDHĀ TA'AKHKHARA 'AL-MUSLIMŪN? WA LIMĀDHĀ TAQADDAMA GHAYRUHUM?

Why have Muslims Fallen behind, and why have others forged ahead?

Shakīb 'Arslān

DAR AL-KITAB AL-MASRI

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI

دار الكتاب المصري
القاهرة

لا يهدف المشروع فقط إلى إعادة إصدار اخر طبعة أصلية صدرت في حياة المؤلف - حتى نتجنب ما تم من تحريف مقصود او غير مقصود على يد بعض الناشرين للكتب بعد رحيل المؤلف - وإنما يتم أيضا اعداد دراسة تقديمية موسعة لكل كتاب. يقوم بها باحثون متخصصون. في محاولة لعرض فكرة الكتاب وقضيته المحورية في ضوء القضايا المطروحة في سياق ذلك العصر. وفي ضوء المشروع الفكري للمؤلف. وتقوم اللجنة العلمية للمشروع بمراجعة هذه الدراسات التقديمية وعقد مناقشات مفتوحة لاصحابها مع نظرائهم من الباحثين وذلك قبل اقرارها للنشر.



LIMĀDHĀ TA'AKHKHARA 'AL-MUSLIMŪN? WA LIMĀDHĀ TAQADDAMA GHAYRUHUM?

(31)

هذا الكتاب

صدر لأول مرة عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، في وقت عصيب عقب انهيار الخلافة العثمانية، ورزوح معظم شعوب العالم الإسلامي تحت نير الاستعمار، محاولاً أن يجيب عن السؤال المرير ومعضلة المعضلات: لماذا تأخر المسلمون؟

وفي إجابته عن ذلك السؤال المرير، يرجع شكيب أرسلان تأخُّر المسلمين إلى مجموعة من الآفات والرذائل الخُلُقية والنفسية التي حاقت بهم؛ فقضت بتأخرهم وتخلفهم، كالكسل والجبن والبخل والخيانة وفقدان الحمية لنشر الدين وفساد الأخلاق واليأس والقنوط. ويضع المسلمين دومًا في مقابلة ومقارنة مع حال أجدادهم بالأمس، وحال الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين اليوم. ويلحق بهذه الرذائل بعض الأسباب الفكرية كالجهل والعلم الناقص والجمود والجحود.

ملخصًا جوابه في أن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم، وأن الواجب على المسلمين لينهضوا ويتقدموا ويعرجوا في مصاعد المجد، ويترقَّوا كما ترقَّى غيرهم من الأمم؛ أن يجاهدوا بالمال والنفس.

يقول الإمام الأكبر أحمد الطيب عن المشروع:



إن هذا المشروع الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية - وهي تستهدف إعادة نشر الإنتاج العلمي والثقافي لأعلام نهضتنا في العصر الحديث - ليُعدُّ فيما أرى - من أهم المشاريع العلمية نحو تأصيل المفاهيم الثقافية في العالم الإسلامي وإعادة تأسيس عقل إسلامي معاصر يستوعب أصوله، ويعيش عصره. وإني أدعو إلى ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها، بكل الوسائل الورقية والإلكترونية.



شيخ الأزهر

أ.د/ أحمد محمد الطيب



ISBN: 978-977-452-170-9

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT